عتاب الله لنبيه
(محمد صلى الله عليه وسلم)
وآثاره التربوية
في ضوء آيات القرآن الكريم

د. حصة بنت حمد الحواس

استاذ التفسير المساعد بكلية الشريعة والدراسات
الإسلامية- جامعة القصيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) آل عمران.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) النساء.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) الأحزاب.

أما بعد :

فقد وفقني الله تعالى إلى اختيار موضوع " عتاب الله لنبيه (محمد صلى الله عليه وسلم) وآثاره التربوية في ضوء آيات القرآن الكريم " ليكون موضوع بحثي – بإذن الله –.

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع: تلك النقلة النوعية التي منَّ الله بها على العرب في شبه الجزيرة العربية فقد عاش العرب في ظلام دامس، طبقية مقيتة، يأكل القوي منهم الضعيف، والظلم قد ضرب أطنابه بينهم، والحقوق ضائعة مهدرة، وبعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي به أضاءت الدنيا كلها، دعا إلى الله وكل نواحي الأرض مجدبة مغبرة فإذا الغبراء خضراء، أعرض عنه من خسر نفسه في الدنيا والآخرة، وآمن به من كتبت له سعادة الدارين، وكرم الله نبيه بنزول كلامه عليه ورأفة بهم كان نزوله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كان منجما مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة، حسب الوقائع والأحداث، يربيهم في كل حدث وواقعة ويجتث جذور عادات تعلقوا بها، فبعض آياته التي نزلت كانت إجابة عن سؤال، وبعضه تعليقا على حدث أو غزوة، وبعضه ردا على شبهة، وبعضه تصويبا لاجتهاد اجتهده صلى الله عليه وسلم وتبين أن الصواب خلافه. فكان له الأثر البالغ في تربيتهم وتهذيبهم فأنشأ منهم جيلا فريدا لم يعهد له مثيل في البشرية.

وكان مما نزل آيات عتاب خصها الله بنبيه صلى الله عليه وسلم مبثوثة في ثنايا كتابه العزيز جاءت مصوبة لاجتهاد ، أو رافعة لمشقة ألزم نفسه بها صلى الله عليه وسلم، فجاءت آيات العتاب مصورة للحدث في أبلغ بيان، معالجة له أتم علاج، كان لها بالغ الأثر في تربية الأمة على الحق الذي فيها، وقد رغبت في دراسة بعضا منها واستخراج الأثر التربوي المتعلق بها الذي نحن بحاجة إلى أن نربي أنفسنا عليها.

إضافة إلى أن آيات العتاب وجه من وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، وضرب من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

ولتعدد مواطن عتاب النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، وعرض جميعها في هذه الورقات يطول استخرت الله على قصر البحث على المواطن التي ذكرها الزركشي في البرهان حيث قال: (فقد عاتب الله سبحانه في خمسة مواضع من كتابه: في الأنفال، وبراءة، والأحزاب، والتحريم، وعبس.)[1] وهذا ما ذهب إليه ابن القيم فقال: (وقد عاتب الله تعالى نبيه في خمسة مواضع من كتابه في الأنفال وبراءة والأحزاب وسورة التحريم وسورة عبس.)[2] وبينها محقق كتاب البرهان وهي كالآتي:

١. **{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) الأنفال.**
٢. **{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)** التوبة.
٣. **{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)** الأحزاب.
٤. **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)** التحريم.

---

١ البرهان في علوم القرآن / بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (١٣/٢) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط : الأولى ، ١٣٧٦هـ. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٢ بدائع الفوائد – ابن القيم الجوزية.

٥. { عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠).

فقصرت بحثي عليها.

أهداف البحث:

ومن أبرز أهداف البحث:

١- بيان مفهوم العتاب وأساليبه.

٢- بيان مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وعصمته.

٣- بيان آيات عتاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم.

٤- الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل له صلى الله عليه وسلم.

منهجي في البحث:

المنهج الذي سأسير عليه "بإذن الله" استقرائي استنباطي تحليلي واتبع فيه الخطوات التالية::

١- تمهيد لكل حدث عاتب الله عز وجل فيه نبيه صلى الله عليه وسلم.

٢- إيراد النص القرآني الذي ورد فيه العتاب وتوضيحه. ومن ثم دراسته دراسة تبين آراء المفسرين وما يفيد ذكره من معاني تحليلية.

٣- عرض نتيجة ذلك العتاب.

٤- استخلاص الآثار التربوية المترتبة لعتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم. على قدر الطاقة البشرية، والله أسأل أن يمنحني التوفيق والسداد.

كما أن البحث سيشتمل على ما يلي:

١- تخريج الآيات.

٢- عزو الأحاديث إلى مصادرها الأصلية.

٣- بيان معاني الألفاظ الغريبة.

أسأل الله الذي بعونه تتم الأشياء. وبمشيئته تتصرف الدهور. وعلى إرادته تتقلب الأمور. التوفيق والتأييد.. والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل.

خطوات البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وبابين وخاتمة وفهارس.

- فأما المقدمة فتحتوي على :

١. بيان أهمية الموضوع ودواعي اختياره.
٢. خطة البحث ومنهجي فيه.

- الفصل الأول: وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: مفهوم العتاب وأنواعه.
المبحث الثاني: عصمة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم واجتهادهم في الأحكام.
المبحث الثالث: مكانة النبي صلى الله عليه وسلم.

- الفصل الثاني : آيات عتاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقد ضمنته خمسة فصول هي :

المبحث الأول: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لقبوله الفداء في أسرى بدر. وضمنته ثلاثة مطالب هي:

١. تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.
٢. النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه، ونتيجة العتاب.
٣. الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم

المبحث الثاني: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك وضمنته ثلاثة مطالب هي:

١. تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.
٢. النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه، ونتيجة العتاب.
٣. الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بإخفائه ما أطلعه الله عليه بأنه سيتزوج بزوجة ابنه الدعي.

١. تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.
٢. النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه، ونتيجة العتاب.
٣. الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الرابع: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لتحريمه ما أحل الله له. وضمنته ثلاثة مطالب هي:

١. تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.
٢. النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه، ونتيجة العتاب.
٣. الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الخامس: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لعبوسه في وجه الأعمى.
وضمنته ثلاثة مطالب هي:

١. تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.
٢. النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه، ونتيجة العتاب.
٣. الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة.

الفهارس : و ضمنته ما يلي:

فهرس: الآيات.
فهرس الأحاديث.
فهرس : المصادر والمراجع.
فهرس: الموضوعات.

الفصل الأول: العتاب.

المبحث الأول: معنى العتاب وأنواعه:

قال ابن فارس: (العين والتاء والباء أصلٌ صحيح، يرجع كله إلى الأمر فيه بعضُ الصُّعوبة من كلامٍ أو غيره. من ذلك العَتَبة، وهي أسكُفَّة الباب، وإنَّما سمِّيت بذلك لارتفاعها عن المكان المطمئنّ السَّهل. وعَتَبات الدُّرْجة: مَرَاقيها، كلُّ مِرقاةٍ من الدُّرْجة عتَبة.... وكلُّ شيء جَسَا وجفا فهو يشتقُّ له هذا اللفظ، يقال فيه عَتَبٌ، إذا اعتراه ما يغيِّره عن الخُلوص.) [1] (قال الخليل: العِتابُ: مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجدَةِ.) [2]

قال الأزهري: (العَتْب : المَوْجِدة ؛ تقول : عَتَب فلان على فلان عَتْباً ومَعْتِبة إذا وَجَد عليه. وقد أعتبني فلان أي ترك ما كنت أجِد عليه من أجله، ورجع إلى ما أرضاني عنه بعد إسخاطه إيّاي عليه.

وقال أبو عُبيد : رُوي عن أبي الدرداء أنه قال : معاتبة الأخ خير من فَقْده... أصل العُتْبى رجوع المستعتَب إلى محبّة صاحبه... والعُتْبى : اسم على فُعْلى يوضع موضع لإعتاب ، وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يُرْضي العاتب..

والتعتب والمعاتبة والعِتاب كل ذلك مخاطبة المدلّين أخلاّءهم طالبين حُسْن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه ممّا كَسَبهم الموجِدةَ.

العتب والعتبان: لومك الرجلَ على إساءة كانت له إليك فاستعتبته منها. وكلّ واحد من اللفظين يخلص للعتاب، فإذا اشتركا في ذلك وذكَّر كلُّ واحد منهما صاحبَه ما فَرَطَ منه إليه من الإساءة فهو العِتاب والمعاتبة. وأمّا الإعتاب والعُتْبى فهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضِي العاتب. والاستعتاب: طلبك إلى المسيء أن يرجع عن إساءته.

قولهم : لك العُتْبى أي لك الرجوع ممّا تكره إلى ما تُحِبّ.

والعِتْب : الرجل الذي يعاتِب صاحبه أو صديقه في كل شيء إشفاقاً عليه ونصيحة له.

والعَتوب : الذي لا يعمل فيه العتاب.) [3]

---

١ معجم مقاييس اللغة / لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٢٢٥/٤) بتصرف. تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط :الأولى ١٤١١هـ، دار الجيل ، ط :الأولى ١٤١١هـ

٢ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / لإسماعيل بن حماد الجوهري، (١/ ١٧٦) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط الرابعة ١٩٩٠م دار العلم للملايين.

٣ تهذيب اللغة/ لمحمد بن أحمد بن الازهري (٣/ ١٦٥) بتصرف يسير. تحقيق: محمد عوض مرعب.، ط: الأولى ٢٠٠١م ،
دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ننستطيع أن نقول بأن العتاب هو: خطاب بين المتحابين يتضمن التوجيه أو التحذير أو التنبيه أو اللوم لتعديل سلوك ما أو ما هو خلاف الأولى، شفقة ونصحا. الغاية منه: تصحيح الخطأ والرجوع عنه مع إبقاء المودة، وإدامة الصلة على المعتوب عليه.

قال ابن القيم في عتاب نبينا صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك رضي الله عنه: (وقد أكثر الناسُ من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرور به، فكيف بعتاب أحبِّ الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرتَه، وأجلَّ فائدتَه، ولله ما نال به الثلاثةُ مِن أنواع المسرَّات، وحلاوةِ الرضى، وخِلَعِ القبول.)[1]

فالجليل سبحانه عاتب الأنبياء والمؤمنين أما الكافرون فلا تنفع معذرتهم ولا هم يستعتبون.

أنواع العتاب الموجه لرسولنا صلى الله عليه وسلم[2]:

بتأمل الآيات التي عاتب فيها العليم الحكيم رسولنا صلى الله عليه وسلم نلمح تنوع في أسلوب العتاب على النحو التالي:

١. عتاب لطيف لين : وذلك مثل قوله تعالى: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) التوبة. وما ذلك إلا لتطمئن نفسه، وتهدئة قلبه صلى الله عليه وسلم أثناء استقبال تلك الآيات.

ومن ذلك تصديره سبحانه عتابه لنبيه صلى الله عليه وسلم بوصف النبوة كما في قوله : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) التحريم. وفي ذلك من الإجلال والتكريم ما فيه.

٢. عتاب فيه شدة. وذلك مثل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) الأنفال. عتاب قوي بين فيه سبحانه عتبه على قضية فداء الأسرى. ونظير ذلك العتاب ما نزل بشأن عبوسه صلى الله عليه وسلم في وجه الأعمى {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)

---

١ زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المشهور بابن القيم الجوزية، (٣/ ٥٧٦)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، ط الثانية ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة.

٢ ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقاني، (٢/ ٣٠٤)، حققه واعتنى به: فؤاد أحمد زمرلي، ط الثانية ١٤١٧هـ، دار الكتاب العربي.

عبس. فقد صيغ بضمير الغائب ولم يوجه العتاب له مباشرة بل متدرجا حتى يكون وقعه على النبي صلى الله عليه وسلم أهون مع ما فيه من الإجلال والتعظيم والمهابة لنبينا صلى الله عليه وسلم ما فيه. فمع قوته إلا أنه قد (حمل في ثناياه عذر الرسول، فهو ما تصدى لمن استغنى إلا أملا في هدايته وإرشاده.)[1]

فعتابه سبحانه صادر من تربيته لعبده صلى الله عليه وسلم يحوطه ويرعاه بعنايته ولطفه بأرقى أسلوب وأبلغه، فحياة الأنبياء منهجا لغيرهم لذا المراجعة والعتاب يكون في أدق الأمور.

وسيأتي بيان هذه الأنواع مفصلة في مواضعها من البحث – بإذن الله –.

المبحث الثاني: عصمة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم واجتهادهم في الأحكام.

الأنبياء هم أكرم الخلق على الله ، اصطفاهم الله واختارهم لتبليغ رسالته إلى خلقه، { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) الحج. هذه هي وظيفتهم { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...(٣٦) النحل. وهم أعظم الناس خلقا، وأشدهم خشية لله، وأرفقهم في تبليغ ما أمروا به أثنى عليهم الجواد الكريم سبحانه وأمر الناس بالاقتداء بهم فقال: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠) الأنعام. قال الجليل سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) هود. وقالت ابنة العبد الصالح واصفة موسى { يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) القصص. وأثنى عليهم العليم الحكيم جميعهم فقال سبحانه: { إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ص. أي: (جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة للّه وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر. وهم صفوة خلقه،

---

١ من بلاغة القرآن / لأحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، ص ٢٧٤ ، ط ٢٠٠٥م.، نهضه مصر – القاهرة.

الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.) [1] وقد سعدت البشرية بهم، وحفل التاريخ بتسجيل أخبارهم.

ومع ذلك هم بشر يأكلون ويشربون ولهم أزواج وذرية، ويعتريهم ما يعتري البشر من الأعراض البشرية فإبراهيم حينما حل عليه الملائكة أضياف وهم على صورة بشر ولم يأكلوا من طعامه { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (٧٠) هود. وكذلك موسى حينما رأى الحبال والعصي في أيدي السحرة انقلبت حيات { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) طه. ولم يصبر على ما رآه من أمور غريبة في صحبته مع الرجل الصالح { أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) الكهف. بالرغم من تذكيره له، وغضب على قومه حينما عبدوا العجل في غيبته { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) طه.،

وعصمتهم فيها تفصيل:

١. عصمة تبليغ الوحي:

الرسل هم سفراء الله لعباده مهمتهم تبليغ ما يوحى إليهم وهم مؤتمنون على ذلك، قال سبحانه: { أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) الأنعام.

فالأمة متفقة على أنهم معصومون في تبليغ الوحي لا يكتمون شيئا منه ولا يزيدون عليه ولا ينسون منه شيء، قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) المائدة. وقال سبحانه: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) النجم. قال ابن كثير: (إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّرًا من غير زيادة ولا نقصان.) [2] وقال سبحانه:{ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) التكوير. قال السعدي: (أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو صلى الله عليه وسلم أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله

١ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص ٧١٥ بتصرف. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط الأولى ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة.

٢ تفسير القرآن العظيم / أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (٧/ ٤٤٣) تحقيق : سامي بن محمد سلامة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت صلى الله عليه وسلم حتى كانوا علماء ربانيين، وأحبارا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.)[1]

وقد تكفل الله بحفظ الوحي في صدر نبينا صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: { سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) الأعلى. قال ابن كثير : (وهذا إخبار من الله، عز وجل، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها.)[2] وطمأنه بأنه سيجمعه له فقال سبحانه: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) القيامة.

قال ابن تيمية: (فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه.) [3]

٢. العصمة من الذنوب:

أما بالنسبة للذنوب فالكبائر منها معصومون عنها، والصغائر تقع منهم ولكن سرعان ما يتوبون منها.

وقال ابن تيمية : (القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام....، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول... وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقا وأعظمهم قولا لذلك الرافضة فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل.)[4] واحتجوا بأمرين:

(احتجوا بأن التأسي بهم مشروع، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا، ومعلوم أن التأسي بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه، ورجعوا عنه، كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورًا به ولا منهيًا عنه، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

---

١ تفسير السعدي، ص ٩١٣ .

٢ تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٩).

٣ مجموع الفتاوى /لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، (١٨/ ٧)، دار عالم الكتب – الرياض، ١٤١٢هـ.

٤ المصدر السابق (٤/ ٣١٩).

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها اللّه، يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف : كان داود . عليه السلام . بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.)[1]

٣. النسيان والخطأ في الاجتهاد في الأحكام والأمور التي لا تتعلق بتبليغ الرسالة والوحي:

سجل القرآن الكريم صدور مثل ذلك منهم، والوحي يتنزل عليهم ويصوب خطأهم، ويذكرهم وسرعان ما يؤبون للصواب إذا أوحي إليهم، أو ذكرهم الوحي أو أحداً من أتباعهم ، وهم أرجح الناس عقلاً ، وأعظم فهماً ، وأكملهم ديناً وتقوى، وصدور مثل ذلك دليل على صدقهم في تبليغهم ومن ذلك:

١- آدم عليه السلام عصى بأكل الشجرة التي نهي عنها يقول عز من قائل :{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) طه. والآية صريحة بذكر العصيان إلا أنه حينما عاتبه الله سرعان ما انكسر بين يدي خالقه { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) البقرة. فجاءته الأعطيات والهبات { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) طه.

٢- وتروي لنا أم سلمة رضي الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: "إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها"[2]

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي – قال محمد: وأكثر ظني العصر – ركعتين، ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد، فوضع يده عليها، وفيهم أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما، فهابا أن يكلماه، وخرج سرعان الناس فقالوا: أقصرت الصلاة؟ ورجل يدعوه النبي صلى الله عليه وسلم ذو اليدين، فقال: أنسيت أم قصرت؟ فقال: لم أنس ولم تقصر، قال:

---

١ المصدر السابق (١٠/ ٢٩٣).

٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٢٤٥٨).

«بلى قد نسيت، فصلى ركعتين، ثم سلم، ثم كبر، فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه، فكبر، ثم وضع رأسه، فكبر، فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبر"[1]

هذه الأمور التي صدرت هي من مقتضى بشريتهم، ودليل على صدقهم، وليست مجال للانتقاص منهم ، أو التقليل من شأنهم عليهم الصلاة والسلام، فهم لا يقرون على الذنب، ولا يؤخرون التوبة، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) البقرة.

الخطأ في الاجتهاد ليس معصية:

قد يجتهد الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور لم ينزل فيها الوحي وقد يجانبه الصواب في ذلك ولا يقدح ذلك فيه ولا يعد معصية (إنما هو خطأ فحسب بل يستحق صاحبه أجرا لأنه صادر عن اجتهاد منه والاجتهاد الصالح وهو بذل الجهد في الاطلاع والبحث والموازنة والاستنتاج مجهود شاق يبذله صاحبه لغرض شريف فليس من الإنصاف حرمانه من المكافأة متى كان أهلا للاجتهاد وإن أخطأ لأن الإنسان ليس في وسعه أن يكون معصوما من الخطأ بل المجتهد يخطئ بعد أن يبذل وسعه في طلب الصواب وهو يتمنى ألا يخطئ بل وهو يخشى أشد الخشية أن يخطئ وينبغي أن ننتبه في هذا المقام أمورا ثلاثة:

أولها: أن خطأ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة التي يتردى فيها كثير من ذوي النفوس الوضيعة كمخالفة أمر من الأوامر الإلهية الصريحة أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة إنما كان خطؤه عليه الصلاة والسلام في أمور ليس لديه فيها نص صريح فأعمل نظره وأجال فكره وبذل وسعه ولكن على رغم ذلك كله أخطأ.

ثانيها: أن الله تعالى لم يقر رسوله على خطأ أبدا لأنه لو أقره عليه لكان إقرارا ضمنيا بمساواة الخطأ للصواب والحق للباطل ما دامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يقول ويفعل ولكان في ذلك تلبيس على الناس وتضليل لهم عن الحق الذي فرض الله عليهم اتباعه ولكان ذلك مدعاة إلى التشكك فيما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطئ ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ وهذه اللوازم كلها باطلة لا محالة فبطل ملزومها وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبدا بل يبين له وجه الصواب وقد يكون مع هذا البيان لون من ألوان العتاب لطيفا أو عنيفا توجيها له وتكليما لا عقوبة وتنكيلا.

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (١٢٢٩).

ثالثها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرجع الصواب الذي أرشده مولاه دون أن يبدي غضاضة ودون أن يكتم شيئا مما أوحي إليه من تسجيل الأخطاء عليه وتوجيه العتاب إليه وفي ذلك لا ريب أنصع دليل على عصمته وأمانته وعلى صدقه في كل ما يبلغ عن ربه وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه ولكن تنزيل العزيز الرحيم.)[1]

المبحث الثالث: مكانة النبي صلى الله علي وسلم:

الرسل هم صفوة الله من خلقه وأكرمهم عليه، ولا يبلغ أحد منزلتهم مهما بلغ من الصلاح والتقوى لاصطفاء الله لهم على سائر خلقه { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) الحج. وفضل الله فيما بينهم { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...(٢٥٣) البقرة. وأفضلهم أولو العزم منهم وهم خمسة قال سبحانه : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (٣٥) الأحقاف. (أولُو الثباتِ والحزمِ.)[2] جاء ذكرهم مجتمعين في موضعين من الكتاب الحكيم قال سبحانه: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) الأحزاب.

وقال أيضا: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى...(١٣) الشورى.

وأفضل الخلق هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

يَا بِكْرَ آمِنَةَ الْمَبَارِكَ بِكْرُهَا... وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ
نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيّةِ كُلّهَا... منْ يُهْد لِلنّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِي[3]

قال ابن عباس: (ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) الحجر)[4].

---

١ مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٢– ٣٠٤) بتصرف.

٢ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (٩٠/٨) دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣ السيرة النبوية / لابن هشام (٤/ ٦٧٠) والأبيات لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة..

٤ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، (١١٨/١٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط الأولى ١٤٢٠ هـ، مؤسسة الرسالة.

وقال عبد الله بن سلام: " ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد. فقيل له : ولا جبريل ولا ميكائيل ؟ "

فقال للسائل : " أتدري ما جبريل وميكائيل ؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخر كالشمس والقمر ، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ".[1]

خصه تبارك وتعالى بخصائص ومناقب فضله بها على غيره من المرسلين وميزه عن سائر العالمين. ومن هذه الخصائص منها:

أنه سيد ولد آدم قال صلى الله عليه وسلم: " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »[2].

اتخذه الله خليلا قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا " [3]

وخاطب كل نبي باسمه، فقال: {يَا آدَمُ اسْكُنْ(٣٥) البقرة، و{يَا نُوحُ...(٣٢) هود، و {يَا إِبْرَاهِيم...(٧٦) هود، و {يَا مُوسَى... (١٤٤) الأعراف، و{يَا دَاوُودُ... (٢٦) ص، و {يَا عِيسى... (١١٠) المائدة، و {يَا زَكَرِيَّا...(٧) مريم، و{يَا يَحْيَى (١٢) مريم، نادى الأنبياء بأسمائهم، ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام بالاسم، تعظيماً له، بل قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...(٦٤) الأنفال، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ...(٤١) المائدة]، فلما ذكر اسمه للتعريف قرنه بذكر الرسالة، فقال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...(١٤٤) آل عمران.

ورفع الله ذكره فقال {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) الشرح. قال قتادة: (رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.[4]

و لا يصح دين إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله كان جوابه لعلي يوم خيبر حين سأله : "على ماذا أقاتل الناس قال « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله "[5]

---

١ مجموع الفتاوى، (٤/ ٣٥٧).

٢ الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، رقم الحديث (٦٠٧٩) ، دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة . بيروت.

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (١٢١٦).

٤ تفسير الطبري (٢٤/ ٤٩٤)

٥ صحيح مسلم رقم الحديث (٦٣٧٥).

قال حسان رضي الله عنه :

وَضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه * إذا قَالَ في الخَمْس المؤذنُ: أشهدُ

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه ليُجِلَّه * فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ [1]

وقرن سبحانه طاعته بطاعته صلى الله عليه وسلم: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ (٨٠) النساء.، وجعل تحصيل الهداية لمن اتبعه وأطاعه، {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) سورة الأعراف.، ومن ابتغى محبة الله عز وجل فعليه باتباعه صلى الله عليه وسلم قال سبحانه: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ...(٣١) آل عمران.

وجمع الله له ثناء أهل السماء والأرض فأمرهم بأمر بدأ به بنفسه فقال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) الأحزاب.

قال ابن كثير : (والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا.) [2] ورتب الأجور على من صلى عليه، وهو صاحب الوسيلة ، وهي درجة عالية في الجنة ، لا تكون إلا لعبد واحد ، وهي أعلى درجات الجنة ن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة صلى عليه الله بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة" [3]

أنه أرسله الله للعالمين كافة ، أنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم قال سبحانه: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (١٥٨) الأعراف. وقال عز من قائل: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) سبأ. وجعله للعالمين رحمة فقال سبحانه: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) الأنبياء. ولا يسع أحدا الخروج عن شريعته بخلاف من سبق من الأنبياء ((والذى نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار." [4]

---

١ تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣١).

٢ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٥٧).

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (٨٧٥).

٤ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٠٣).

وفضل على الأنبياء بست عن أبى هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال " فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون "[1].

وهو خاتم الأنبياء والمرسلين قال تعالى : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) الأحزاب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[2]

وزكاه ربه وطهره فقال سبحانه : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) القلم. وأثنى عليه فقال: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (التوبة : ١٢٨).

وكانت معجزته من أعظم المعجزات تخاطب العقول والنفوس وهو باق في الأمة إلى أن يأذن الله برفعه يقول سبحانه: { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) فصلت. وأوتي نورين لم يؤتهما نبي قبله عن ابن عباس قال بينما جبريل قاعد عند النبي –صلى الله عليه وسلم– سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: " هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. " [3] وأسري به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء السابعة حتى سمع صريف الأقلام وانتهى إلى سدرة المنتهى.[4]

ومن معجزاته انشقاق القمر قال سبحانه: { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) القمر.، ومن معجزاته أنه كان ينفث على القليل من الطعام فيكثر. [5] وشكى الناس قلت الماء فوضع صلى الله عليه وسلم يده في الركوة، فجعل الماء

---

١ صحيح مسلم رقم الحديث (١١٩٥).

٢ صحيح البخاري برقم (٣٥٣٥) وفي مسلم برقم (٦١٠١).

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (١٩١٣).

٤ حديث الإسراء والمعراج بطوله في صحيح البخاري برقم (٣٤٩) وفي مسلم برقم (٤٢٩).

٥ من حديث جابر وهو في صحيح البخاري برقم (٤١٠٢) وفي مسلم برقم (٥٤٣٦).

يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال جابر فشربنا وتوضأنا. قيل له كم كنتم.؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة" [1]

وهو صاحب الشفاعة العظمى وذلك عندما يشتد الكرب في أرض المحشر يطلب الخلق من الرسل أن يشفعوا لهم عند ربهم ليقضي بينهم فيتدافعها الرسل كل رسول يحيلها للآخر حتى يأتوا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فيقول: " نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع" [2]

وفضلت أمته على الأمم فهي خيرها وأكثر أهل الجنة قال سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... (١١٠) آل عمران. قال صلى الله عليه وسلم: " فوالذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة "[3]

إلى غيرها من الخصائص الدالة على رفعته وعلو مكانته صلى الله علي وسلم.

هذه هي مكانته وبعضا من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولكن كيف نوفق بين ما سبق وبين ما صح عنه أنه قال: " لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى "[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينما يهودي يعرض سلعته، أعطي بها شيئا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدا، فما بال فلان لطم وجهي، فقال: «لم لطمت وجهه» فذكره، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى رئي في وجهه، ثم قال: " لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء

---

١ من حديث جابر وهو في صحيح البخاري برقم (٣٥٧٦) وفي مسلم برقم (٤٩٢٠).

٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٤٧١٢).

٣ صحيح البخاري رقم الحديث (٦٦٤٢).

٤ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٣٩٥).

الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي" [1]

فكيف يكون ذلك وربنا سبحانه يقول : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ... (٢٥٣) البقرة.؟

أجاب عن ذلك ابن كثير رحمة الله عليه فقال:

(فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل وفي هذا نظر.

الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.)[2]

إذا كانت هذه هي مكانته صلى الله عليه وسلم، فواجبنا تجاهه كما نهج لنا سبحانه قال سبحانه: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...(١٤٣) البقرة. فمنهج أهل السنة والجماعة الوسط فلا نغلو به عليه الصلاة والسلام ولا نجفو، فهو أحب إلينا من أنفسنا، ومن جميع محبوباتنا، كان النبي صلى الله عليه وسلم يوما آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الآن يا عمر." [3]

ومع ذلك لا يجوز أن نصرف له شيئاً من حقوق الله –جل وعلا– وهو الذي نهانا عن ذلك فقال: صلى الله عليه وسلم: " لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله"[4] والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه [1]. لا يصرف له

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٤١٤)

٢ تفسير ابن كثير (١/ ٦٧١).

٣ صحيح البخاري رقم الحديث (٦٦٣٢).

٤ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٤٤٥).

شيء من الربوبية والألوهية، بل هو عبد الله ورسوله، ذكره الله بالعبودية في مقام الامتنان عليه بتنزيل القرآن فقال: { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)الفرقان. وكذلك في الإسراء سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...(١) الإسراء. وقال عنه سبحانه: { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) الجن. فهو عبد لله عز وجل، والعبد لا يُعبد، وهو رسول من الله عز وجل، والرسول لا يُكذب، بل يطاع ويتبع صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

---

١ شرح السنة . للإمام البغوي / للحسين بن مسعود البغوي (١٣/ ٢٤٦) ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط – محمد زهير الشاويش ، ط الثانية . ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي – دمشق . بيروت.

• الفصل الثاني : آيات عتاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لقبوله الفداء في أسرى بدر.

المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.

غزوة بدر[1] هي أول غزوة كان لها أثرها في إظهار قوة الإسلام فكانت بدء الطريق ونقطة الانطلاق في انتشار الإسلام، وما تلاها من الغزوات والجهاد كان امتدادا لمعناها. تهاوت فيها قيم الجاهلية فالتقى الابن بأبيه، والأخ بأخيه، والقريب بقريبه لأول مرة قتال يكون في سبيل الله فلا للعصبية ولا للقبيلة ولا للأحقاد والضغائن ولا للثأر إنما الباعث والمحرك هو الإيمان بالله وحده. لأول مرة يلتقي فيها الجمعان جيش الإسلام وجيش الكفر، أقبلت قريش ممتطية كبريائها ورافعة راية غرورها وغطرستها مجلبة على رسولنا صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها جاءت بألف مقاتل يفوقون المسلمين عددا وعدة، وكان المسلمون ثلاث مائة وتسعة عشر وحالهم كما وصفهم عليه الصلاة والسلام في تضرعه لمولاه سبحانه عز وجل: " اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم إنهم عراة فاكسهم اللهم إنهم جياع فأشبعهم "[2] " تَحْتَ شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح "[3] مستقبلا القبلة مادا يديه " يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه، مادّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله – عَزَّ وَجَلَّ – : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ

---

١ ينظر من معين السيرة/ صالح أحمد الشامي ص ١٩١– ٢١٩ ، ط الأولى ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي – بيروت.

٢ سنن أبو داود: الإمام أبو داود سليمان السجستاني،(٥/٥٢٥) تحقيق وتعليق عزت الدعاس،١٣٩١هـ، سوريا.

٣ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، مؤلف الأصل /محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، رقم الحديث (٢٢٥٤) ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي.مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني. ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ ، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية.

أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } فأمده الله بالملائكة."[1] والتقى الفريقان ونزلت الملائكة مثبتة للمسلمين مقاتلة معهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "هذا جبريل، آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب" [2] فكان المشركون يومئذ ما بين قتيل وأسير وفار وكانت الغلبة للمسلمين" فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين." [3] أما الأسرى فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمرهم قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: " فلما أسروا الأسارى قال رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأبي بكر وعمر (ما ترون في هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكر: يا نبي اللَّه هم بنو العم والعشيرة أَرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوةً على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "ما ترى يا ابن الخطاب" قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر. ولكني أرى أن تُمكِّنَّا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه. وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:" أَبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" شجرة قريبة من نبي اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. وأنزل اللَّه – عَزَّ وَجَلَّ –: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } إلى قوله.. {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا }فأحل اللَّه الغنيمة لهم."[4]

المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب وتحليله، ونتيجة العتاب.

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

---

١ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٦٨٧).
٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٩٩٥).
٣ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٦٨٧).
٤ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٦٨٧).

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } (ما صح له وما استقام)[1] والمراد به نبينا صلى الله عليه وسلم وإنما عبر بذلك تلطفاً به صلى الله عليه وسلم حتى لا يوجه بالعتاب (نفي اتخاذ الأسرى عن استحقاق نبي لذلك الكون. وجيء ب"نبي" نكرة إشارة إلى أن هذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل.، والنفي هنا بمعنى : لا يصلح من حيث الرأي والسياسة... المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أن ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضدا لشوكة أهل العناد)[2] قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه اللّه كما تسمعون.[3] قال السعدي: (هذه معاتبة من اللّه لرسوله وللمؤمنين يوم بدر إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء.)[4]

قال ابن جرير: (وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم. { حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسرًا.)[5] والإثخان هو الإمعان في القتل قال الراغب: (ثخن: يقال ثخن الشئ فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه.)[6] (وذلك أنّ القتيلَ قد أُثْقِل حتى لا حَرَاكَ به.)[7] والمعنى أن النبي إذا قاتل فقتاله متمحض لغاية واحدة، هي نصر الدين ودفع عدائه، وليس قتاله للملك والسلطان فإذا كان أتباع الدين في قلة كان قتل الأسرى

---

١ الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، (٢/ ٥٩٨)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط الأولى١٤١٨هـ.، مكتبة العبيكان – الرياض.

٢ التحرير والتنوير (٩/ ١٦٠) بتصرف.

٣ معالم التنزيل / لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (٥٤/٤) تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش.، ط الرابعة ، ١٤١٧ هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

٤ تفسير السعدي ص ٣٢٦

٥ تفسير الطبري (١٤/ ٥٩).

٦ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، ص ٧٩،.تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – لبنان.

٧ معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٧٢).

تقليلا لعدد أعداء الدين حتى إذا انتشر الدين وكثر أتباعه صلح الفداء لنفع أتباعه بالمال، وانتفاء خشية عود العدو إلى القوة. فهذا وجه تقييد هذا الحكم بقوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ }.)[1] { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } (تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطُعْمها.)[2] انتقل من أسلوب الغيبة إلى الخطاب ومن الإفراد إلى الجمع (فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ.) [3] والمقصود بذلك المؤمنون وأما بكاءُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما نزلت آيات العتاب (فإنَّمَا كان رحمةً لِنزول العذابِ لمن أراد بذلك عرضَ الدنيا، ولم يُرِدْ ذَلِكَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أبو بكر، وإن أرادَه بعضُ الصحابة، فالفتنةُ كانت تَعُمُّ ولا تُصيبُ مَن أرادَ ذلك خاصة، كما هُزِمَ العسكرُ يومَ حُنَين بقول أحدهم: "لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ" وبإعجاب كثرتهم لِمن أعجبته منهم، فهزم الجَيْشُ بذلك فِتنة ومحنة، ثم استقر الأمرُ على النصر والظفر.. والله أعلم.) [4] وإلا فالواضح من موقفه صلى الله عليه وسلم عدم اهتمامه بالجانب المادي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أسارى بدر: " لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له"[5] (تعبيرا عن الوفاء لهذا الرجل فلقد كان كثير الشبه بأبي طالب في تعامله مع نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول مكة بعد عودته من الطائف إلا بجوار المطعم، وكان من أشد الناس حرصا على نقض الصحيفة يوم حوصر المسلمون في شعب أبي طالب، ألا يدل ذلك على أن مسألة الفداء للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن حرصا على المادة وأخذ المال، وإلا لما فكر بتركهم لمطعم، وإنما كان جانب الحرص والرغبة في إصلاح أعدائه وتوقع أن يهديهم إلى طريق الحق هو الدافع بالنسبة له صلى الله عليه وسلم لقبول الفداء...)[6] وإن صدر ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم فهم حديثي عهد بمثل هذه القضايا والوحي ينزل ليزكيهم ويعلمهم.

---

١ التحرير والتنوير (٩/ ١٦٠).

٢ تفسير الطبري (١٤/ ٥٩).، وينظر أيضا تفسير البغوي (٣/ ٣٧٦). تفسير السعدي ص ٣٢٦

٣ تفسير ابن كثير (٣٠٧/٧).

٤ زاد المعاد (٣/ ١١١).

٥ صحيح البخاري رقم الحديث (٣١٣٩).

٦ من معين السيرة ص ٢٠٨ بتصرف يسير.

{ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } (والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعدّ للمؤمنين وأهل ولايته في جناته، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها.)[1]

{ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (والله عزيز، يقول: إن أنتم أردتم الآخرة، لم يغلبكم عدوّ لكم، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب وأنه(حكيم) في تدبيره أمرَ خلقه.)[2]

{ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) قال ابن كثير (من الفداء)[3]

(لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم { لَمَسَّكُمْ } لنالكم { فِيمَا أَخَذْتُمْ } من الفداء { عَذَابٌ عَظِيمٌ }).[4]

فالعتاب كان على أخذ الفداء ولم يكن له صلة بالغنائم (لوجهين:

الأول: أن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال لعمر: أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة.

فالنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذكر أخذهم الفداء الناشئ عن استبقاء الرجال وربط العذاب بذلك، ولم يأتِ للغنائم ذكر، وأولى ما يُفسر به القرآن الصحيح من السنة.

الثاني: أن الله ذكر الفداء بقوله: (أَخَذْتُمْ) وهو تعبير النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وذكر الغنيمة بقوله: (غَنِمْتُمْ) واختلاف المباني يدل على اختلاف المقصود من المعاني.)[5]

والغنائم قد سبق حلها قبل غزوة بدر المباركة بعد سرية عبد الله بن جحش في رجب للسنة الثانية (فكانت أوّل غنيمة غنمها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.)[6]. قال ابن القيم عن هذه السرية: (ثم قَدِمُوا بالعِير والأسيرين، وقد عزلوا مِن ذلك الخُمس، وهو أول خُمس كان

---

١ تفسير الطبري (١٤/ ٥٩).

٢ تفسير الطبري (١٤/ ٥٩).

٣ تفسير ابن كثير (١٩/٤).

٤ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، (٣٩١/١) ط الأولى ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان.

٥ المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية/ لخالد بن سليمان المزيني، (٢/ ٥٧٥). ط: الأولى، ١٤٢٧ هـ.دار ابن الجوزي، الدمام – المملكة العربية السعودية.

٦ السيرة لابن هشام (١٥١/٣)، وأيضا :تفسير ابن كثير (١: ٥٧٤).

في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام.)[1] قال صلى الله عليه وسلم: " فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا." [2] وكانت الغنائم من الخمس التي أعطيهن صلى الله عليه وسلم ولم يعطهن نبي قبله : " وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي"[3] وكان ممن كره الانشغال بالغنائم عن الإمعان في القتل سعد بن معاذ رضي الله عنه (فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم قال أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال.)[4]

وأيضاً عمر رضي الله عنه (قال ابن زيد: لم يكن من المؤمنين أحد ممن نُصِر إلا أحبَّ الغنائم، إلا عمر بن الخطاب، جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه، وقال: يا رسول الله، ما لنا وللغنائم، نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يُعبد الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك! قال الله: لا تعودوا تستحلون قبل أن أحلّ لكم.) [5]

والذي أحدث اللبس هل العتاب على أخذ الفداء أم الغنائم هو حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس قبلكم كانت تنزل من السماء نار فتأكلها فلما كان يوم بدر وقع الناس في الغنائم فأنزل الله: { لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) الأنفال." [6] والجواب على ذلك: (أن الآيات نزلت دفعة واحدة فظن بعض الناس أن لها صلةً بها فحدّث بذلك وأبو هريرة لم يشهد هذا بنفسه لأنه لم يُسلم بعد، والذي يحمل على هذا الظن أن الله ذكر بعدها أكل الغنائم فقال: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} فالتبس هذا بهذا... لما وقع التوبيخ عليهم لأخذهم الفداء تحرجوا حتى من الغنيمة فأمسكوا عنها فبين اللَّه لهم حلها بقوله: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا). فأمرهم بالأكل وأحله وطيَّبه.) [7] فقال سبحانه:

---

١ زاد المعاد (٣/ ١٦٨).

٢ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٦٥٣).

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (١١٩١).

٤ السيرة النبوية / لابن هشام ، (٦٢٨/١).

٥ تفسير الطبري (١٤/ ٧١).

٦ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ، رقم الحديث (٤٧٨٦).

٧ المحرر في أسباب نزول القرآن (٢/ ٥٧٥).

{ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر:{ فَكُلُوا } ، أيها المؤمنون { مِمَّا غَنِمْتُمْ }، من أموال المشركين { حَلَالًا }، بإحلاله لكم { طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ }، يقول: وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئا بعد هذه من قبل أن يُعْهَد فيه إليكم.).[1] وفائدة قوله حلالا: (إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة.)[2] و (والترغيب في أكلها... { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } فيغفرُ لكم ما فرَط منكم من استباحة الفداءِ قبل ورود الإذنِ فيه ويرحمُكم ويتوبُ عليكم إذا اتقيتموه)[3]

قال ابن عاشور: (هذا تشريع مستقبل أخره الله تعالى رفقا بالمسلمين الذين انتصروا ببدر وإكراما لهم على ذلك النصر المبين وسدا لخلتهم التي كانوا فيها، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى في شأن الأسرى في وقعة بدر.)[4]

المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم:

١- هذه الآية من الآيات التي يستدل بها على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يجتهد فيما لم ينزل فيه وحيا فإن أخطأ لم يقره بذلك الوحي ، فإن لم ينزل ما ينقضه أو يوجهه أمضاه، وإلا عدل إلى ما نزل به الوحي.[5]

٢- صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته، وأنه وحي منزل، وإلا كيف يجتهد ويعمل باجتهاده ثم يلوم نفسه ويعاتبها على الملأ.

٣- الشورى مبدأ أمر به الشرع { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } (١٥٩) آل عمران، وأثنى على عباده المؤمنين العاملين به فقال {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...(٣٨) الشورى. وطبقه رسولنا عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في عدة قضايا منها قضية الأسرى استجابة لأمر ربه سبحانه وغايته الحصول على الرأي الأفضل والأحسن. فإن أخطأ فله أجر والوحي ينل بما هو صواب. فعلى قادة الأمة الاقتداء به.

---

١ تفسير الطبري (١٤/ ٧١).

٢ تفسير البيضاوى (١/٣٩١).

٣ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (٤/ ٣٦) دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤ التحرير والتنوير (٩/ ١٥٩).

٥ ينظر تفسير البيضاوي، (١/٣٩١).

٤- في الآيات (قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد ، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين حتى ترهب من قبل أعدائها. وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها.) [١]

٥- العدو المتغطرس لا بد أن يجد منا غلظة وشدة حتى تخضد شوكته وتفل قوته، وتكون الغلبة والنصرة والعزة للمسلمين، ليأمن المسلمون شرهم، وتقوى هيبتهم، ويحسب لهم عدوهم ألف حساب قبل أن يفكر في النيل منهم.

٦- علو مكانة أهل بدر عند الله وتربيتهم على ما تزكو به أنفسهم وليس في عتابهم نقيصة فإن هؤلاء الذين عاتبهم الله سبحانه بقوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } قد وجبت لهم الجنة وغفر لهم قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد " لعل الله اطلع إلى أهل بدر؟ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم."[٢] وهؤلاء المعاتبون الذين قيل فيهم { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم قائلا: " ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.""[٣]

٧- محبته صلى الله عليه وسلم وشفقته على أصحابه رضوان الله عليهم نلتمس ذلك من بكائه عندما نزلت آيات العتاب.

٨- يربينا القرآن الكريم على كيفية معالجة الأخطاء فحساب المنتصر على ما يبدر منه من خطأ أشد من حساب المنكسر ففي بدر كان أسلوب التوجيه شديدا لأن النفس منتصرة والمعنويات عالية فهي قادرة بإذن الله على تحمل ما يأتيها من توجيه، بخلاف ما نزل من آيات عقب أحد {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) آل عمران. فعلى المربين أن يلحظوا مثل ذلك في توجيههم وتربيتهم.

---

١ من معين السيرة ص ٢٠٩.

٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٩٨٣).

٣ صحيح البخاري رقم الحديث (٣٩٩٢).

٩- (قتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...(١٥) التوبة. ولهذا كان قَتلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك.)[١]

١٠- كان العتاب على أخذ الفداء في بداية تكوين وإعداد الدولة الإسلامية بعد ذلك (قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً... محمد. فجعل الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استبعدوهم ، وإن شاءوا فادوهم، وإن شاءوا أعتقوهم)[٢] (وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.)[٣].

١١- سعة رحمة الله بعبادة ورفقه بهم تأمل الآيات السابقة (بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها.)[٤]

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢١).

٢ تفسير البغوي (٣/ ٣٧٦).

٣ تفسير ابن كثير (٤/٩١).

٤ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم / لمحمد بن عبد الله دراز. ص ٥٥، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط ١٤٢٦ هـ.

المبحث الثاني: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك:

المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب:

في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة عزم[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله. وقد قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) التوبة.

أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد إليه، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم. وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره وأمر الناس بالجهاز والإسراع وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. بعد أن قال عليه الصلاة والسلام: "من جهز جيش العسرة فله الجنة" [2]

وجاء البكاؤون وكانوا سبعة نفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم حتى يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده من الظهر ما يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون تأسفا على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله والنفقة فيه. قال تعالى فيهم :{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) التوبة.

---

١ ينظر السيرة لابن هشام (٤/ ٥١٥– ٥٣١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٦٥٣ – ٦٧٥). زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٥٢٦ – ٥٥٢)، من معين السيرة للشامي ص ٤٣٥ – ٤٥٦.

٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٢٧٧٨).

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم الغيبة حتى تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، مرارة بن ربيع، وهلال بن أمية ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

وفيهم أنزل الله { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) التوبة.

وجد المسلمون في الاستعداد والإنفاق ، وجد المنافقون في التثبيط والوشاية والإفساد مستفيدين من الضيق في المال والإعداد الذي يعيشه المسلمون ومن صعوبة الطريق وبعد المسافة وشدة الحر، وضخامة العدو. فعملوا على التثبيط والتخلف ما استطاعوا ومن مواقفهم:

- لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين وعسكر بهم، سار عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين فلما سار جيش المسلمين، تخلف ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.
- خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا، ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه.فلحلق بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون، من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي "[1]
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، وهو في جهازه ذلك، للجد بن قيس: يا جد هل لك العام في جلاد بنى الأصفر.؟ فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وانى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: قد أذنت لك، ففيه نزلت الآية: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٤٩) التوبة.
- وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: { لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ...(٨١)التوبة.، زهادة في الجهاد، وشكّا في الحق، وارجافا بالرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل فيهم: { وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) التوبة.

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٤٤١٦)

وانطلق المسلمون وكان الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حر شديد، فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها.

واستمر المنافقون على حالهم حتى من صحب الجيش منهم لم يفتؤا عن التثبيط والتخذيل والإرجاف ومن ذلك:

- **حينما ضلت ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم فذهبوا في طلبها فقال رجل من المنافقين: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.**
- **وكانوا يقولون: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض، والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين.**
- **مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم السقاية من وادي المشقق.**
- **همهم الفتك به صلى الله عليه وسلم في طريق عودته للمدينة.**
- **وقال جماعة منهم : استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[1]. فاستأذنوه فإذن فنزلت آيات تعاتب[2] نبينا صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم.**

المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.

{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

قال ابن جرير: (وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتبٌ به نبيَّه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين.)[3]

وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما سبب نزول هذه الآيات ووقتها (وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له: ألا تغزو بني الأصفر، لعلك أن تصيب بنت عظيم الرُّوم، فإنهنّ حِسان ! فقال رجلان: قد علمت، يا رسول الله، أن النساء فتنة، فلا تفتنَّا بهنَّ! فأذن لنا ! فأذن لهما. فلما انطلقا، قال أحدهما: إن هو إلا شَحْمةٌ لأوّل آكلٍ! فسار رسول الله صلى

---

١ جامع البيان (١٤/ ٢٧٣).

٢ تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٨)

٣ جامع البيان (١٤/ ٢٧٢).

الله عليه وسلم، ولم ينزل عليه في ذلك شيء، فلما كان ببعض الطريق، نزل عليه وهو على بعض المياه:{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ...(٤٢) التوبة.، ونزل عليه: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ...(٤٣) التوبة.، ونزل عليه: { لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ (٤٤) التوبة.، ونزل عليه: { إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) التوبة.) [١]

قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه اللّه كما تسمعون.[٢]

{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } قال الراغب: (العفو القصد لتناول الشيء، وعفت الريح الدار قصدتها متناولة آثارها، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه.)[٣] (أي: سامحك وغفر لك ما أجريت.) [٤]

{ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ } لأي سبب أذنت لهم؟ وكان عددهم (بضعة وثمانين رجلا.) [٥]

(كأنه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلي الأمر كما هو قضية الحزم.)[٦]وجاء (العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجلمة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم.)[٧]

{ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } (حتى تعرف مَن له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنتَ له منهم على علم منك بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المتخلفُ نفاقًا وشكًّا في دين الله.)[٨] فإذنه صلى الله عليه وسلم لهم كان مبنيا على معرفته بنوعية الرجال الذين استأذنوا بأن خروجهم ضرره أكثر من نفعه وهو ما صوبه الله وفضحهم بقوله { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

---

١ المصدر السابق (١٤/ ٤٢٦).

٢ تفسير البغوي (٤/٥٤).

٣ المفردات ص ٣٣٩

٤ تفسير السعدي ص ٣٣٨

٥ جامع البيان (١٤/ ٤٢٦).

٦ تفسير أبي السعود (٤/٦٨).

٧ التحرير والتنوير (١٠/ ١٠٧).

٨ جامع البيان (١٤/ ٢٧٣).

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) التوبة.، ولكن العتب على أنه كان يجب أن يكون الأذن بعد التبين من حقيقة أمرهم لينكشفوا بين المسلمين..(نعم كان الأولى تأخيرُ الإذن حتى يظهر كذبُهم آثرَ ذي أثيرٍ ويفتضحوا على رؤوس الأشهادِ ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعةِ ولا يتسنّى لهم الابتهاجُ فيما بينهم بأنهم غرُّوه عليه الصلاة والسلام وأرضَوْه بالأكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيشٌ ولا قرت لهم عينٌ إذ لم يكونوا على أمن واطمئنانٍ بل كانوا على خوف من ظهور أمرِهم وقد كان.)[١]

قال عون: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.[٢] فقدم العفو إيناساً له، و ليكسر حرارة العتاب فلو بدأ بقوله { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } لقلقل فؤاد السامع فقدم سبحانه العفو على المعاتبة له صلى الله عليه وسلم (لئلا يطير قلبه فرقا.)[٣] ولئلا توحشه مفاجأته بذلك.فأخبره الله بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه.)[٤] وقال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.[٥]

بعد هذا العتاب تفضل المنان سبحانه ببيان قاعدة يميز ويعرف بها المؤمن من المنافق في مثل هذه المواقف فقال سبحانه: { لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)

(هذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.)[٦] { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } (ذو علم بمن خافه، فاتقاه بأداء

---

١ تفسير أبي السعود (٤/٦٩).

٢ تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٩)

٣ تفسير القرطبي (٨/ ١٥٤).

٤ عن عون بن عبد الله والسمرقندي ينظر التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٢).

٥ تفسير البغوي (٤/٥٥).

٦ في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (٣/ ١٦٦٢)، ط الشرعية العاشرة ١٤٠٢هـ، دار الشروق.

فرائضه، واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى طاعته في غزو عدوّه وجهادهم بماله ونفسه، وغير ذلك من أمره ونهيه.) [1]

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥)

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: إنما يستأذنك، يا محمد، في التخلف خِلافكَ، وترك الجهاد معك، من غير عذر بيِّنٍ، الذين لا يصدّقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده{ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ }يقول: وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه { فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ }، يقول: في شكهم متحيِّرون، وفي ظلمة الحيرة متردِّدون، لا يعرفون حقًّا من باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين.) [2] (والتردّد حقيقته ذهاب ورجوع متكرر إلى محل واحد، وهو هنا تمثيل لحال المتحير بين الفعل وعدمه بحال الماشي والراجع، وقريب منه قولهم: يقدم رجلا ويؤخر أخرى..) [3] و أفادت الظرفية في قوله:{فِي رَيْبِهِمْ (إحاطة الريب بهم، أي تمكنه من نفوسهم.) [4]

و (تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما.) [5]

المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم:

١- تعليم الأمة كيف تعظم نبيها صلى الله عليه وسلم وتخاطبه فـ (إن الله عز وجل وقَّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريما عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو.) [6]

---

١ جامع البيان (١٤/ ٢٧٤).

٢ جامع البيان (١٤/ ٢٧٥).

٣ التحرير والتنوير (١٠/ ١١٠).

٤ المرجع السابق.

٥ تفسير البيضاوي (١/ ٤٠٦).

٦ تفسير البغوي (٤/٥٥).

٢- أمانة النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغه ما عاتبه الرحمن عليه وأنه لو كان كاتما شيئا لكتم هذه الآيات.

٣- (يجب على المسلم المجاهد نفسه الرائض بزمام الشريعة خلقه أن يتأدب بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقة وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب: المنعم على الكل، المستغنى عن الجميع ويستشير ما فيها من الفوائد وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب.)[1] وهذا فيه تربية الأمة على الأدب في الخطاب عند الاستدراك على الآخرين فيما يعتب عليهم بأن نتلطف معهم وندعو لهم ونترضى عليهم قبل أن نفاتحهم بما نريد.

٤- التعرف على (طرف من أخلاق المنافقين ومرضى القلوب الذين لم يتمكن الإيمان من نفوسهم، ولم يتغلغل في أعماق قلوبهم، عرضته الآيات الكريمة هذا العرض الواضح المستنير، ليكون فضحا للخادعين الكاذبين، وعزاء للمؤمنين الصادقين. فمن أخلاقهم: تعلّلهم بالمعاذير واختلاق الأكاذيب ليهربوا من تبعات الإيمان وواجبات الجهاد.)[2]

٥- (الواجب على أصحاب الدعوات ألّا يجاملوا أحدا على حساب مصلحة الدعوة أبدا، وأن يظهروا الناس على خفايا الكائدين المنافقين ليحذروهم.)[3]

٦- التعامل مع الآخرين يجب أن يكون مبني على ما ظهر وبان للخلق من حقائق عنهم، لذا عاتب ربنا سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أذنه للمنافقين مع أن عدم خروجهم كان هو الأنسب لقوله سبحانه: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ولو لم يأذن لهم رسول الله لانكشفوا، ولكن إذنه صلى الله عليه وسلم أعطاهم

---

١ الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ للقاضي أبو الفضل عياض اليحصبي – مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء / للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمني ص ٢٩
ط ١٤٠٩ هـ، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.

٢ نظرات في كتاب الله / لحسن أحمد عبد الرحمن محمد البنا الساعاتي ، ص ٣١٣ ، ط. ١٤٢٣ هـ ، دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة.

٣ المصدر السابق ص ٣٠٨

ستارا لسوء سريرتهم. ورسول الله هو أسوتنا، فلا يحكم أحد على أحد قبل أن يتبين من أمره.

٧- الحذر من مخالفة أمر الله وخديعة الناس بانتحال الأعذار فإن الله عليم بالمتقين. فلا تجعل القوي العزيز أهون الناظرين إليك.

٨- الوقوف عند أمر الله ونهيه قدر المستطاع علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

٩- (لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات ، ولا في الفضائل والفواضل من العادات ، كقرى الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف)[١]. (وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدى له معروفا ، ولا بالمضيف ولا يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما؛ فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره. وصلوات الله وسلامه على خليله إبراهيم ، فقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه الله تعالى: بهذه الخلة الجميلة، فقال: { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) الذاريات. أي : ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به... فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة.)[٢]

١٠- المنافقون (هم دعاة الهزيمة والتردّد، والطابور الخامس، وهم أخطر وأنكى أثرا من الأعداء السافرين.) [٣]

---

١ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) / لمحمد رشيد بن علي رضا، (١٠/ ٤٠٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ الانتصاف / لابن المنير، (٣/ ٤٩) حاشية الكشاف.

٣ نظرات في كتاب الله ، ص ٣١٤.

المبحث الثالث: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بإخفائه ما أطلعه الله عليه بأنه سيتزوج بزوجة ابنه الدعي.

المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب:

جاء الإسلام وعند العرب عادات وتقاليد اجتماعية متجذرة في نفوسهم شائعة وذائعة وهي من المحرمات التي تتعارض مع المنهج الشرعي، وكانت هذه العادات متمكنة في نفوسهم يصعب اقتلاعها وتهذيبها، فكان الشرع رفيقا بهم بعضها جاء تحريمها بالتدريج، وبعضها حرمت مباشرة، وبعضها أُخر الرحمن تحريمها، وبعضها كان صعبا وشاقا عليهم فكان لا بد من تطبيق عملي يرونه ماثلا أمامهم حتى تقبله نفوسهم وتستجيب له ومن لطف الله بعباده أنه كان رفيقا بهم في ذلك التحريم ومن تلك العادات :

قضية التبني وهو: إلحاق الرجل ولد رجل آخر باسمه وجعله ولدا له، كان ذلك شائعا عند العرب ويعطون الدعي منهم جميع حقوق الأبناء، حتى في المواريث والخلوة بالمحارم، ومحرمات النكاح.

واحتاج المنهج الجديد في تربية الناس وتعليمهم إلى تطبيق عملي ماثل أمام أعينهم يؤيّد معالجة ذلك الحكم ويقوّيه، ويقيم له وزنًا في أعين الناس واختار العليم الحكيم بيت النبي صلى الله عليه وسلم لإبطال هاتين القضيتين، ليكون وقعه أشد على النفس فتمحى تلك العادات منها ولا يبقى لها أثر، ولقوة تحمل النبي صلى الله عليه وسلم مقالة الناس وحديثهم فيمن سيخالف عادتهم وهديهم في هذه المسألة.

معالجة قضية التبني :

زيد بن حارثة الكلبي [1] خرجت به أمه لتزيره أهلها، فسبي وبيع فاشتراه حكيم بن حزام وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد فوهبته للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن زيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن»، { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...(٥) الأحزاب. [2] فألغى الإسلام التبني، وبقيت بعض الأحكام المتعلقة به والعالقة في أذهان الناس التي لا بد من حدث قوي يجتثها كالزواج من مطلقة الابن الدعي فكانت شاقة على النفوس، (وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في

---

١ ينظر السيرة لابن هشام (٢/ ٢٤٧- ٢٤٩).

٢ صحيح مسلم رقم الحديث (٤٧٨٢).

الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنا ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم.) [1]

وقد وردت بعض الآثار التي لا تليق بنبينا صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة أعرض عنها كثير من العلماء ونحن نذكر منها ما يليق بمقامه صلى الله عليه وسلم قال ابن كثير: (ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم هاهنا آثارًا عن بعض السلف، رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفَحا لعدم صحتها فلا نوردها.) [2]

وقال ابن حجر: (ووردت آثار أخرى أخرجها بن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد.) [3] **وقال ابن عاشور: (وقد رويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة، فلا تصغ ذهنك إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر زيدا بإمساك زوجه فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فأما أن يكون ذلك اختلاقا من القصاصين لتزيين القصة، وأما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم فتلقفه القصاص وهو الذي نجزم به. ومما يدل لذلك أنك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثرا مسندا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى زيد أو إلى زينب أو إلى أحد من الصحابة رجالهم ونسائهم ولكنها قصص وأخبار وقيل وقال.)** [4]

فكان مما قضاه الله تلك الزيجة المباركة زواج زينب بنت جحش كانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه و سلم بزيد بن حارثة، فكانت هذه الزيجة مع مشقتها على نفوس من اختارهم الله ليكونوا مثالا تطبيقيا يرى بالعين فيثبت وقعه في القلب، كان لها أثرا في إبطال موروثا من العادات الشائعة المتمكنة في النفوس.فأراد الله تعالى (أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهن.) [5]

---

١ فتح الباري شرح صحيح البخاري/ للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٥٢٣) بعناية محب الدين الخطيب ، ط. مكتبة الفيحاء، دمشق.

٢ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٤)

٣ فتح الباري شرح صحيح البخاري/ للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٥٢٣) بعناية محب الدين الخطيب ، ط. مكتبة الفيحاء، دمشق.

٤ التحرير والتنوير: (٢١/ ٢٦٤).

٥ تفسير السعدي ص ٦٦٥

تقول زينب رضي الله عنها: (خطبني عدة من قريش فأرسلت أختي حمنة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم أستشيره فقال لها رسول الله صلى الله عليه و سلم : أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها ؟ قالت : ومن هو يا رسول الله ؟ قال زيد بن حارثة قال : فغضبت حمنة غضبا شديدا وقالت : يا رسول الله أتزوج بنت عمك مولاك ؟ قالت : جاءتني فأعلمتني فغضبت أشد من غضبها وقلت أشد من قولها فأنزل الله { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) الأحزاب. قالت : فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وقلت إني استغفر الله وأطيع الله ورسوله افعل ما رأيت فزوجني زيدا وكنت أرثى عليه فشكاني إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم)[1]

(كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها، قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله:(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.) [2] فكان يستحي أن يأمره بطلاقها. فكان الأمر شاقا على جميع أطراف القضية:

- زيد استحالة عشرته مع زينب رضي الله عنهم أجمعين.
- زينب صابرة ومحتسبة لأمر الله عز وجل. فهي من هي شرفا ونسبا، تتزوج برقيق.
- نبينا عليه الصلاة والسلام يعلم بتعليم الله له أن زيدا سيفارقها و سيتزوجها عليه الصلاة و السلام وهذا هو ما أخفى في نفسه، ويحرم على الرجل أن يتزوج امرأة ابنه المتبنى في عرف العرب وعاداتهم، ، فكان يخشى قالة الناس، والأفواه المفتوحة والقيل والقال، وإرجاف المنافقين، فكانت تجول هذه الأمور في نفس نبينا صلى الله عليه وسلم فنزلت آيات تعاتبه في ذلك.

المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)

---

١ المعجم الكبير / لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، (٣٩/٢٤) ،تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، ط. الثانية ، ١٤٠٤هـ.، الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل.

٢ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٤).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم عتابا من الله له واذكر يا محمد) [1] {إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ} (فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسر دخوله في ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول عليه الصلاة والسلام أنعم عليه بالعتق والتبني والمحبة، ويأتي التصريح باسمه العلم إثر هذه الآية في قوله: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً})[2]

{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}

استحالت العشرة بين زيد وزينب وجعل زيد يقول: (يا نبي الله إنها قد اشتد علي خلقها)[3] وفي رواية (اشتد علي لسانها وإني أريد أن أطلقها.)[4] فيقول له صلى الله عليه وسلم مشيرا وناصحا له بتقوى الله والصبر عليها وإمساكها. وفي الإتيان بالفعل في قوله : { وَإِذْ تَقُولُ } (بصيغة المضارع لاستحضار صورة القول وتكريره وفي ذلك تصوير لحث النبي صلى الله عليه وسلم زيدا إلى إمساك زوجه وأن لا يطلقها، ومعاودته عليه.) [5] وفي قوله { أَمْسِكْ } (الإمساك مستعار لبقاء الصحبة تشبيها للصاحب بالشيء الممسك باليد.

وزيادة {عَلَيْكَ} للدلالة "على" على الملازمة والتمكن، وأمره بتقوى الله تابع للإشارة بإمساكها، أي اتق الله في عشرتها كما أمر الله ولا تحد عن واجب حسن المعاشرة.) [6]

فقال الله سبحانه معاتبا له: { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ }

قال ثابت: أنها "نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة"[7]

و(كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أن زينب ستكون من أزواجه.) [8] " وهذا هو الذي أخفى في نفسه قال القرطبي: (قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية. وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسّرين، والعلماء الراسخين، كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم،

---

١١ المصدر السابق (٢٠/ ٢٧٣).

٢ التحرير والتنوير: (٢١/ ٢٥٩).

٣ المعجم الكبير (٢٤/٤٢).

٤ المصدر السابق (٢٤/٤١).

٥ التحرير والتنوير: (٢١/ ٢٥٩)بتصرف يسير.

٦ المصدر السابق: (٢١/ ٢٦٢).

٧ صحيح البخاري رقم الحديث (٧٤٢٠).

٨ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٤). وينظر تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٦)، تفسير السعدي ص ٦٦٥

إلى أن قال: فأمّا ما روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا أو مستخفّ بحرمته.)[1]

قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشد عليه منها؛ قوله: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) ولو كان نبي الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم كاتما شيئا من الوحي لكتمها.) [2] وكذلك قال أنس رضي الله عنه. [3]

(والإتيان بالفعل المضارع في قوله:{وَتُخْفِي} للدلالة على تكرر إخفاء ذلك وعدم ذكره. والذي في نفسه علمه بأنه سيتزوج زينب وأن زيدا يطلقها وذلك سر بينه وبين ربه ليس مما يجب عليه تبليغه ولا مما للناس فائدة من علمه حتى يبلغوه، ألا ترى أنه لم يعلم عائشة ولا أباها برؤيا إتيان الملك بها في سرقة حرير إلا بعد أن تزوجها. { فِي نَفْسِكَ } هو التزوج بزينب وهو الشيء الذي سيبديه الله لأن الله أبدى ذلك في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بها ولم يكن أحد يعلم أنه سيتزوجها ولم يبد الله شيئا غير ذلك.) [4]

قال ابن حجر: (والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه و سلم هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنا ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم.) [5]

{ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ }

قال الحسن: (خشِي نبي الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم مقالة الناس.)[6] والناس هنا المنافقون (كان يتوسم من خبثهم وسوء طويتهم ما كان منهم في قضية الإفك) [7] و (لم يرد به أنه لم يكن يخشى اللّه فيما سبق. فإنه عليه السلام قد قال: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم

---

١ تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٠).

٢ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٣).

٣ صحيح البخاري رقم الحديث (٧٤٢٠).

٤ التحرير والتنوير: (٢١/ ٢٦٢).

٥ فتح الباري شرح صحيح البخاري/ للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٥٢٤) بعناية محب الدين الخطيب ، ط. مكتبة الفيحاء، دمشق.

٦ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٣).

٧ التحرير والتنوير: (٢١/ ٢٦٣).

له"[1] ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن اللّه تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء.) [2] عن عائشة، قالت: لو كتم رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم شيئا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ }.) [3]

{ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا }

(الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فَرَغ منها، وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي وَلي تزويجها منه هو الله، عز وجل، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر.) [4]

عن أنس، رضي الله عنه، قال:" لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد "فاذكرها علي". فانطلق حتى أتاها وهي تُخَمِّر عَجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري – حتى ما أستطيع أن أنظر إليها – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أُوَامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن."[5] فكان الوسيط بينهما زيد (وذلك ابتلاءٌ عظيمٌ وشاهدُ عدلٍ بقوَّةِ إيمانِه)[6]

وفي قوله { زَوَّجْنَاكَهَا } تزويج الله لها " فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات"[7]

قال ابن حجر في معرض فوائد هذا الحديث: (وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة وأن من وكل أمره إلى الله عز و جل يسر الله له ما هو الأحظ له والأنفع دنيا وأخرى.) [8]

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٥٠٦٣).

٢ تفسير البغوي (٣/ ٦٤٣).

٣ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٤).

٤ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٥).

٥ صحيح مسلم برقم (٣٥٧٥).

٦ تفسير أبي السعود (٧/ ١٠٥).

٧ صحيح البخاري رقم الحديث (٧٤٢٠).

٨ فتح الباري شرح صحيح البخاري/ للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٥٢٤) بعناية محب الدين الخطيب ، ط. مكتبة الفيحاء، دمشق.

{ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا }
والحكمة الإلهية في ذلك التزويج (لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء،)[1]

(و"الأدعياء": جمع الدَّعيِّ، وهو المتبنى، يقول: زوجناك زينب، وهي امرأة زيد الذي تبنيته، ليعلم أن زوجة المتبنّى حلال للمتبني، وإن كان قد دخل بها المُتَبَنَّى، بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب.)[2]

{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }

(وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.) [3] وأن (نكاح نساء من تبنوا وليسوا ببنيهم ولا أولادهم على صحة إذا هم طلقوهن وبِنَّ منهم.) [4]

المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

١. صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه للوحي فلم يكتم شيئا منه قالت عائشة رضي الله عنها: (من زعم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتم شيئا من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية.)[5] و (عن أنس، قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اتق الله، وأمسك عليك زوجك" قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا لكتم هذه،)[6]

٢. قاعدة اجتماعية تتربى عليها الأمة وهي أنه لا فرق بين أعجمي ولا عربي إلا بالتقوى فلا تفاضل في الأنساب ولا الأحساب. والتطبيق العملي لهذه القاعدة كان زواج زيد الابن الدعي بزينب القرشية رضي الله عنهما.

---

١ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٦).
٢ تفسير البغوي (٦/ ٣٥٧).
٣ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٦).
٤ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٥).
٥ صحيح مسلم رقم الحديث (٢٨٧).
٦ صحيح البخاري رقم الحديث (٧٤٢٠).

٣. التسليم التام المطلق لله ولرسوله. وهذا هو المنهج الرباني أحب ما أحب الله وإن كان مخالفا لهواي، وأبغض ما أبغض الله وإن كان موافقا لهواي وهذا ما فعلته زينب وزيد رضي الله عنهما.

٤. عظم مكانة زيد رضي الله عنه بتصريح الله له بالإنعام عليه وهي تزكية له. والشرف الذي حازه دون غيره من الصحابة فهو الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه صراحة في القرآن، وكأنه عُوِض بإبطال تبنيه بتسجيل اسمه في كتاب الله يتلى في المحاريب إلى قيام الساعة.

٥. من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه يتمثل ذلك في زينب رضي الله عنها التي سلمت أمرها لله ورسوله ورضيت بزيجتها من زيد رضي الله عنه، فعوضها الله نتيجة تسليمها زواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم " فكانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات "[1] وعن الشعبي، قال: كانت زينب زوج النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم تقول للنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن؛ إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير لجبرائيل عليه السلام." [2]

٦. التعليم بالفعل أبلغ من التعليم بالقول ، خاصة عند الرغبة في تغيير قناعات راسخة في نفوس المخاطبين ، فعادة التبني لم تكن لتبطل بالقول، لولا تجسيد ذلك أمامهم بزواجه صلى الله عليه وسلم من مطلقة ابنه الدعي.

٧. (جواز تزوج زوجة الدَّعِيّ، كما صرح به.

٨. أن المستشار مؤتمن، يجب عليه –إذا استشير في أمر من الأمور– أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

٩. أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

١٠. يتعين أن يقدم العبد خشية اللّه، على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٧٤٢٠).

٢ جامع البيان (٢٠/ ٢٧٦).

١١. فضيلة زينب رضي اللّه عنها أم المؤمنين، حيث تولى اللّه تزويجها، من رسوله صلى اللّه عليه وسلم، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم..) [١]

١٢. رحمة الله بعبادة فإن اقتلاع العادات وخاصة ما يتعلق بالعرض والشرف والنسب من أشدها على النفس خاصة عند العرب، فكان إبطالها متدرجا، فكان بداية الأمر إبطال التبني، بعد أن استوعبوا ذلك واطمأنت أنفسهم (زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: { وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم... (٢٣) النساء. ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم.) [٢]

---

١ من رقم ٧– ١٢ ينظر تفسير السعدي ص ٦٦٦ بتصرف.

٢ تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٦).

المبحث الرابع: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لتحريمه ما أحل الله له.

المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.

عن عبيد بن عمير قال: سمعت عائشة: تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلا، فتواصيت أنا وحفصة: أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له» وقال لي إبراهيم بن موسى: عن هشام: "ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا" فنزلت: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...(١) التحريم. [١] (والمغفور صمغ حلو له رائحة كريهة)[٢] و"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل "[٣] و(يشتد عليه أن يوجد منه الريح.)[٤] فحرم على نفسه ما ظن أنه كان سببا في صدور الرائحة الكريهة منه، فنزلت الآيات تعاتبه على ذلك التحريم.

وذكر المفسرون قولين آخرين لنزول الآيات ذكرها الطبري[٥] وغيره وهما: تحريم جارية وهبت نفسها له، والآخر تحريم مارية القبطية ليرضى أحد زوجاته قال القرطبي: (أصح هذه الأقوال أولها. وأضعفها أوسطها... وأما ضعفه في معناه فلأن رد النبي صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريما لها، لأن من رد ما وهب له لم يحرم عليه، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل. وأما من روي أنه حرم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في الصحيح... الصحيح أنه كان في العسل وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، فجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسر ذلك. ونزلت الآية في الجميع.)[٦]

وقال ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرّمه النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كان، فإنه كان

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٦٦٩١) وصحيح مسلم رقم الحديث (٢٠).واللفظ للبخاري.

٢ فتح الباري (٩/ ٣٧٧). تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٨).

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (٢١).

٤ صحيح البخاري رقم الحديث (٦٩٧٢).

٥ جامع البيان (٢٣/ ٤٧٥- ٤٨٠).

٦ تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٩).

تحريم شيء كان له حلالا فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرّم على نفسه.)[1]

المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

(هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته "مارية" أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته. ناداه بوصف النبوة يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة) [2] **وفي ذلك تشريفاً لمكانه، وتعظيماً لمقامه، وتلطفا في عتابه، وفي ذلك أيضا (تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي صلى الله عليه وسلم والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه.**

{لِمَ تُحَرِّمُ} الاستفهام مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ذلك... قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللاء تمالأن عليه لفرط غيرتهن، أي ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهم، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام

{ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ } في الإتيان بالموصول هنا لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض لأن تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه.

{ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ } سبب ذلك التحريم ومشقته على نفسه طلب رضا الزوجات (لأن الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضا وذلك مما يختل به حسن المعاشرة

---

١ جامع البيان (٢٣/ ٤٨٠).

٢ تفسير السعدي ص ٨٧٢ بتصرف.

بينهن، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارض بأن تحريم ما أحل الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة.) [1] (وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه.)[2].

والتعقيب بـ : { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (استئناسا للنبي صلى الله عليه وسلم من وحشة هذا الملام، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ.. (٤٣) التوبة.) [3] (تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحِمَه.) [4]

وهو إيحاء لطيف مشعرٌ بالإشفاق على هذا الذي يُحَمِّل نفسه الكثير ، وهو الذي اصطُفى ليكون نبياً رسولاً ، ولذلك امتلأت السورة بكلمات التودد واللطف من مثل { النَّبِيُّ } { اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) وكأنها تظاهرة للدفاع عنه ، والتخفيف عنه صلي الله عليه وسلم ومن هنا يبرز قوله ({غَفُورٌ رَحِيمٌ } ليحمل معنى المودة والحب وكأنه يقول والله حبيب لك رحيم بك.

{ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)

(استئناف بياني بين الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم أن له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله من كفارة اليمين فأفتاه الله بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمة كلها.) [5]

{ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ } (أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض { لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} ، لتبرأ ذممكم، { وَهُوَ الْعَلِيمُ } الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو { الْحَكِيمُ } في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.) [6]

{ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)

---

١ التحرير والتنوير (٢٨/٣٠٩ – ٣١٠). بتصرف يسير.

٢ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. (٨/ ٢١٩).ط ١٤١٥هـ. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.

٣ التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٠).

٤ تفسير السعدي ص٨٧٣

٥ التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٠).

٦ تفسير السعدي ص٨٧٣

هذه الآيات ليست من عتاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بل هي حكاية لجزء من الحدث (فإن النفوس تتطلع إلى معرفة أسباب العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاصيل ما جرى بينه وبين أزواجه.)[1] رأيت من المناسب الحديث عنها وعن الآية التي تليها.

{ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا } ولم تفصح الآيات عن هذا السر، ولعل المقصود ما أشار له الحديث السابق حينما حرم على نفسه العسل وقال لحفصة :"ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا"[2] ولكن ما لبث أن انتشر السر { فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ } أطلع الله نبيه على ما فعلت.

{ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ } أدب رفيع سلكه صلى الله عليه وسلم في معاتبته لحفصة التي أفشت سر زوجها بأنه لم يعرض لها تفاصيل ذلك بل اكتفى بالإشارة إلى بعضه. فسألته مستغربة {مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا}.؟ كيف عرفت.؟ فأجابها { نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) الذي يعلم السر وأخفى.

قال عمر رضي الله عنه: (فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة، وكان قال: «ما أنا بداخل عليهن شهرا» من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله، فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عدا، فقال: «الشهر تسع وعشرون ليلة» فكان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة.)[3] وتأثرت حفصة رضي الله عنها بذلك كثيرا عن ابن عباس عن عمر – قال: اعتزل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت: خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مشربة له فاعتزل فيها، ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يبكيك ألم أكن حذرتك هذا، أطلقكن النبي صلى الله عليه وسلم؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في المشربة.)[1]

---

١ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من العلماء بإشراف أ.د مصطفى مسلم (٨/ ٢٤٧). ط. الأولى ١٤٣١هـ.، جامعة الشارقة.

٢ سبق تخريجه في ص ٣٦.

٣ صحيح البخاري رقم الحديث (٥١٩١)

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٥١٩١)

{ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

(تنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه وأسمى مقصدا.)[1]

والخطاب كان موجها " لعائشة وحفصة " [2]

{ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }

خطاب(على الالتفاتِ للمبالغةِ في العتابِ)[3] (للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه.

{ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ } أي: تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، { فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول ، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم. وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

ثم خوفهما أيضا، بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال:

{ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ } أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالا وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها { تَائِبَاتٍ } عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا } أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع

---

١ التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٠٩).

٢ صحيح البخاري رقم الحديث (٦٦٩١) وصحيح مسلم رقم الحديث (٢٠).واللفظ للبخاري.

٣ تفسير أبي السعود (٨/ ٢٦٧).

صلى الله عليه وسلم، فيما يحب، فلما سمعن –رضي الله عنهن– هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.)[1]

المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.

١. ما جعله الله حلالاً لا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً وإرضاءً لأحد.
٢. رحمة الله سبحانه بالأمة حيث أن أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله تشريعا لهم وهي مأمورة أن تتأسى به، لذا تحريمه على نفسه ما أحل الله له اجتهاد لا بد من الرجوع عنه.
٣. صدق النبي صلى الله وأمانته في التبليغ حينما يتلو على الناس آيات لموقف حدث بينه وبين زوجاته وفيها عتاب له وتنبيه شديد لزوجاته ألا يدل ذلك على صدقه وأمانته.! فلم يكن أحد ليعلم لو كتمه وأخفاه.
٤. عظم مكانة النبي صلى الله عليه وسلم لدفاع الله عنه وتحذير من تسبب في التضييق عليه.
٥. عظيم منة الله على نبيه وعلى أمته أيضا برفع الحرج عنهم بكفارة اليمين.
٦. تربية الأمة وخاصة الأزواج إلى ضبط ما يراعي من الغيرة وما لا يراعى في أمر النساء.
٧. ميزان الكلمة حساس في الإسلام فعلى العبد أن يرقب ألفاظه ويزنها بميزان الشرع فإن كانت لا محذور فيها أمضاها، وإلا تراجع عنها وتاب واستغفر.
٨. من حلف على يمين فرأى حنثها خيرا من برها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير.

---

١ تفسير السعدي ص (٨٧٣ – ٨٧٤).

المبحث الخامس: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لعبوسه في وجه الأعمى.

المطلب الأول :تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب:

جاء الإسلام ليرسم منهجا جديدا ويغرس قيما عظيمة في أتباعه، ويضع ميزانا جديدا يقاس به أتباعه

فالميزان السماوي هو التقوى لا لعصبية مقيتة ولا لجاه ولا لسلطان، ولا لمقدار ما يملكون من مال

فإن مقاييس الجاهلية هذه هي العقبة التي حرمت كثير منهم في نجاتهم ودخولهم للإسلام { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) الشعراء هذا هو منطقهم، وهذه هي مخرجات تربيتهم، فأنفوا أن يستجيبوا للهدى بعد إذ جاءهم، أنفوا أن يجلسوا مع الضعفاء والبسطاء أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في مجلس واحد

جاء الإسلام واستعلى على تلك القيم الجاهلية فجعل الميزان لقياس البشر هي التقوى (يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء؛ ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء.. كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة ، وأن يؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه؛ وألا يقيم وزناً بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة؛ ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة)[1] فشاء الله أن يربي عباده على هذا الميزان الجديد ويغرس فيهم قيمة اجتماعية عالية، وميزانا جديدا يقيس العبد علاقة بربه، وعلاقته بغيره، محبتنا واهتمامنا وتركيزنا يجب أن يعرض على هذا الميزان، فالميزان الجديد لا يقبل أن يعطي للمال والجاه والسلطان وزنا، ولا للصور والأجساد والألوان وزنا، ولا للقبيلة والعشيرة والأرض وزنا، فميزانه التقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) الحجرات. ولتمكن ما مضى من جاهلية في النفوس كان لا بد من تطبيق عملي محسوس ماثل بينهم يجتثها ويمحي أثرها، وليكن الطرف الأهم في هذا الموقف رسول الله صلّى الله عليه وسلم والطرف الثاني رجل من أتباعه ذاق حلاوة الإيمان وأراد المزيد منها فكانت هذه الحادثة، والطرف الثالث علية القوم.

سبب النزول:

---

١ في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٩).

قال ابن العربي: (لَا خِلَافَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى.)[1]

أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآيات حادثة ابن أم مكتوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج الترمذي في سننه عن عائشة رضي الله عنها: أنزلت { عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: "أترى بما أقول بأسًا" فيقل: لا. ففي هذا نزل. هذا حديث حسن غريب[2]

قال القرطبي: (الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتوليه عن عبدالله بن أم مكتوم.)[3]

المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه:

{ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) عبس.

إحدى عشرة آية في عتابه صلوات ربي وسلامه عليه (بدأ هذا العتاب متحدثا عن الغائب، وكأنه بذلك يريد أن يرسم الصورة لرسوله على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه، لتكون الصورة واضحة القسمات بيّنة المعالم، فالمرء لا يرى وجه نفسه، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب في رفق قريب من العنف، مبينا ما لعله يرجى من الخير من هذا الأعمى السائل، ثم عقد موازنة بين من عنى به النبي ومن أعرض عنه، فهذا مستغن لا يعنيه أن يصغى إلى الدعوة، أو يطيعها، والآخر مقبل، تملأ قلبه الخشية، ويدفعه الإيمان، وقد سجل القرآن معاملة الرسول لهما، ولكن هذا العتاب يحمل في ثناياه عذر الرسول، فهو ما تصدى لمن استغنى إلا أملا في هدايته وإرشاده.)[1]

{ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)

---

١ أحكام القرآن / القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (٤/ ٣٦٢)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الثالثة ١٤٢٤ هـ.

٢ ينظر الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي ص٢٣٠، ط الرابعة ١٤٠٨هـ، مكتبة ابن تيمية القاهرة. ذكره الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم٢٦٥١، جامع البيان (٢١٧/٢٤).

٣ تفسير القرطبي، (١٩/ ٢١٢).

١ من بلاغة القرآن ص ٢٧٤.

العبوس: قطوب الوجه من ضيق الصدر[1]، (والتولي. أصله تحول الذات من مكانها، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه أو جليس يحل عنده، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر.)[2]

والذي { عَبَسَ وَتَوَلَّى } هو رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعُدِل إلى (لفظ الاخبار عن الغائب، تعظيما له ولم يقل: عبست وتوليت) [3] (وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلال له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم مثله)[4] قال ابن عاشور: (لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثا على أن يترقب المعني من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب وهذا تلطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع العتاب في نفسه مدرجا وذلك أهون وقعا.) [5] (ثلاث جمل لم يخاطب الله فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنها عتاب فلو وجهت إلى الرسول بالخطاب لكان فيه ما فيه لكن جاءت بالغيبة { عَبَسَ })[6]

{ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)

الأعمى هو الصحابي ابن أم مكتوم رضي الله عنه، (والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو.) [7] بن زائدة بن الأصم هو ابن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى. وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضى الله عنها وعنه؛ لأن أم خديجة فاطمة بنت زائدة بن الأصم. كان قديم الإسلام قدم المدينة مهاجرا مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما. كان ضريرا مؤذنا لرسول الله، وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه: {لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ..(٩٥)النساء. { وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

١ المفردات ، ص٣٢٠.

٢ التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٢).

٣ تفسير القرطبي، (١٩/ ٢١٣).

٤ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (٣٠/ ٣٩) ط الرابعة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.

٥ التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٢).

٦ تفسير القرآن العظيم / لمحمد بن صالح العثيمين ص ٦٢ اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان، ط الثانية ١٤٢٣هـ. دار الثريا للنشر والتوزيع – الرياض.

٧ تفسير بن كثير (٨/ ٣٢١).

(٩٥)النساء. قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت – وكان رجلا أعمى – فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله عز وجل: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} (٩٥)النساء.[١]

فكان بعد يغزو ويقول: ادفعوا إلي اللواء، فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين.

شهد القادسية معه الراية، ثم رجع إلى المدينة، فمات بها، ويقال استشهد يوم القادسية سنة خمس عشرة للهجرة.[٢]

(وعبر عن ابن أم مكتوم بـ{الأَعْمَى} (للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقوم والدلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق ، أو لزيادة الإنكار.)[٣]

{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)

(وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟ { لَعَلَّهُ يزكى } أي يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم { أَوْ يَذَّكَّرُ } أو يتعظ { فَتَنفَعَهُ } ذكراك ، أي : موعظتك؛ وتكون له لطفاً في بعض الطاعات)[٤]

وفي التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الخطاب { يُدْرِيكَ } بعد أن عبر عنه بضمير الغائب في مطلع السورة (فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض.)[١] ثم يشتد العتاب:

{ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)

---

١ صحيح البخاري رقم الحديث (٢٨٣٢).

٢ الاستيعاب في أسماء الأصحاب/ ليوسف بن عبد الله بن عبد البر على هامش كتاب الإصابة (٢٥٩/٢) ط ١٣٢٨هـ،،سير أعلام النبلاء/ لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (١/ ٣٦٠)، ط الرابعة ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة – بيروت. أشرف على تحقيق الكتاب: شعيب الأرنؤوط، وحقق هذا الجزء حسين الأسد.

٣ تفسير البيضاوي، (٥٦٨/٢).

٤ الكشاف (٦/ ٣١٤).

١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، (٣٠/ ٣٩).

ط الرابعة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.

(التصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدى أي الصوت الراجع من الجبل.)[1] وقال القرطبي: (والتصدي: الإصغاء؛... وأصله تتصدد من الصد، وهو ما استقبلك، وصار قبالتك؛ يقال: داري صدد داره أي قبالتها،)[2]

(أي مهما يكن شيء فالذي استغنى تتصدى له.) [3] (وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة. فالمراد بـ{مَنِ اسْتَغْنَى} هنا: من عد نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله لأنه أجاب قول النبي صلى الله عليه وسلم له "هل ترى بما أقول بأسا" ، بقوله: " لا والدماء..."[4] كناية على أنه لا بأس به يريد ولكني غير محتاج إليه. وليس المراد بـ {مَنِ اسْتَغْنَى} من استغنى بالمال إذ ليس المقام في أيثار صاحب مال على فقير.)[5] وسواء كان الاستغناء بالمال أو الولد أو العشيرة أو بعبادته لأصنامه فالنتيجة واحدة، استغنى (عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارفِ التي ينطوي عليها القرآنُ { فَأَنتَ لَهُ تصدى } أي تتصدَّى وتتعرضُ بالإقبالِ عليهِ والاهتمامِ بإرشادِه واستصلاحِه، وفيه مزيدُ تنفيرٍ له عليه الصلاةُ والسلامُ عن مصاحبتِهم فإن الإقبالَ على المُدبرِ ليسَ من شيمِ الكبارِ.)[6] وفي ذلك (إنكار التصدي والتلهي عليه ، أي : مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغنيّ ويتلهى عن الفقير.)[7]

{ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧)

(أي لست مؤاخذا بعدم اهتدائه حتى يزيد من الحرص على ترغيبه في الإيمان ما لم يكلفك الله به. وهذا رفق من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.) [1]

{ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)

---

١ المفردات في غريب القرآن ص ٢٧٩

٢ الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٠).

٣ التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٤)..

٤ الموطأ / مالك بن أنس (٢٨٤/٢).تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي، ط: الاولى ١٤٢٥هـ.مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان.

٥ التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٥).

٦ تفسير أبي السعود (٩/ ١٠٨).

٧ الكشاف (٦/ ٣١٥).

١ التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٦).

(ثم زاد سبحانه في معاتبة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: { وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى}: والسعي: (هو المشي السريع وهو دون العَدْوِ ويستعمل للجد في الأمر.) [1] أي { وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ (حال كونه مسرعًا في المجيء إليك طالبًا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله فأنت عنه تتشاغل، وتعرض عن الإقبال عليه.)[2]

(وفي تقديم ضميره صلى الله عليه وسلم على الفعلين[3] تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته صلى الله عليه وسلم، أي مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدى للمستغنى ويتلهى عن الفقير الطالب للخير. وتقديم "له، وعنه" للتعريض باهتمامه صلى الله عليه وسلم بمضمونهما.) [4]

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)

{ كَلَّا } مبالغة في إرشاده صلى الله عليه وسلم وهي (كلمة ردع وزجر؛ أي ما الأمر كما تفعل مع الفريقين؛ أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغني، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدم، ولو حمل على صغيرة لم يبعد.) [5] (حقا إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي.)[6]

تنزل هذه الآيات ويقرؤها صلى الله عليه وسلم على أصحابه وتسطر في المصاحف وتتلى في المحاريب إلى قيام الساعة. فما نتيجة هذا العتاب وما آثاره على الأمة..؟ جاء في روح المعاني أنه صلى الله عليه وسلم (بعدها ما عبس في وجه فقير ولا تصدى لغني، وتأدب الناس أدبًا حسنًا[1]. فكان صلى الله عليه وسلم يكرم بعد ذلك ابن أم مكتوم ويقول إذا رآه: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟[2]) واستخلفه على المدينة مرات وكان يؤذن له في رمضان.

---

١ المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٣

٢ فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير / محمد بن علي بن محمد الشوكاني (٥/ ٣٨٢) بتصرف يسير. دار الفكر.

٣ الضميران هما: { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦). { فَأَنْتَ عَنهُ تَلَهَّى (١٠).

٤ تفسير أبي السعود (٩/ ١٠٨).

٥ تفسير القرطبي، (١٩/ ٢١٥).

٦ تفسير السعدي، ص ٩١١.

١ روح المعاني للألوسي(٤١/٣٠)

٢ ينظر تفسير أبي السعود (١٠٧/٩)، روح المعاني للألوسي(٣٩/٣٠)، تفسير القرطبي(٢١٣/٢٠).

المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم :

١. صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته بتبليغه لأمته عتاب الله له، إذ كيف يلوم نفسه ويعاتبها على فعل لم ينتبه له ذلك الأعمى أصلا ، ويسجل ذلك بآيات تتلى، يسمعها المؤمن والكافر، إذ لا يمكن توجيه هذا الأمر إلا أنه صادقا فيما يقول وأنا ما جاء به وحي من الله.

٢. تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس اتباعه وأن مكانته عند الله عظيمه دل على ذلك أسلوب عتاب الله له بأن وجهه له بضمير الغائب ليكون وقعه على النفس ألطف وأهون ولو خاطبه مباشرة لكان فيه ما فيه ، ثم خاطبه { وَمَا يُدْرِيكَ } ليؤنس وحشته. ، وهذا غاية في أدب المعاتبة واللوم ، وأسلوب هو أرفع الأساليب كلها في هذا المجال. ولتتأدب الأمة في خطاب نبيها وتعظمه صلى الله عليه وسلم، ولترتقي في أسلوب خطاب بعضهم البعض.

٣. عناية العلي العظيم سبحانه بتأديب نبيه صلى الله عليه وسلم حيث عوتب على قبض عضلات وجهه لرجل أعمى لا يؤثر ذلك فيه كما يؤثر فيمن يبصر، حتى تحقق فيه : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) القلم. إنها التربية الإلهية حتى أنه كان قرآنا يمشي على الأرض وجواب عائشة رضي الله عنها لا يحتاج إلى زيادة حينما سئلت " أَنْبِئِينِى عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ألست تقرأ القرآن.؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن " [١]

٤. لم يؤثر هذا العتاب في نبينا صلى الله الله عليه وسلم فحسب بل أثر في أمته وورثته من العلماء والدعاة فكانوا في غاية التواضع للناس قال الزمخشري: (ولقد تأدّب الناس بأدب الله في هذا تأدباً حسناً؛ فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله أنّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.)[١]

٥. (جواز لقب الإنسان بوصفه مثل الأعمى والأعرج والأعمش، وقد كان العلماء يفعلون هذا، الأعرج عن أبي هريرة، الأعمش عن ابن مسعود... وهكذا، قال أهل العلم واللقب بالعيب إذا كان المقصود به تعيين الشخص فلا بأس به، وأما إذا كان المقصود به تعيير الشخص فإنه حرام؛ لأن الأول . إذا كان المقصود به تبيين

---

١ صحيح مسلم رقم الحديث (١٧٧٣).

١ الكشاف (٦/ ٣١٤).

الشخص . تدعو الحاجة إليه، والثانية . إذا كان المقصود به التعيير . فإنه لا يقصد به التبيين وإنما يقصد به الشماتة.)[1]

٦. **رحمة الله بنبيه صلى الله عليه وسلم بأن لا يكلف نفسه ما لا تطيق فقد كان حريصا على هداية البشر وتبليغهم، فقد رأى الطريق سهلة ميسورة على الضعفاء، فأحب أن يتذوق طعمها ويتفيأ ظلالها الكبراء والسادة، فشق على نفسه في تبليغهم ونزلت في ذلك الآيات تلو الآيات لتهدئته ولتطمين قلبه وعليه ألا يكترث بهم { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) الشعراء. (البخع : أي يبلغ بالذبح البخاع بالباء ، وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حدّ الذبح ولعل للإشفاق ، يعني : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك.) [2]**

٧. **الميزان الحقيقي والصحيح الذي يقاس به البشر هو ميزان الإيمان والتقوى لا المقاييس المادية فلا يقاس المرء بجاهه ولا بماله ولا بقبيلته (وهذه الآيات فيها تأديب من الله عز وجل للخلق ألا يكون همهم هَّما شخصيًّا بل يكون همهم هَّما معنويًّا وألا يفضلوا في الدعوة إلى الله شريفاً لشرفه، ولا عظيماً لعظمته، ولا قريباً لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقير والغني، الكبير والصغير، القريب والبعيد.)[3] فقد خذلت أبا جهل أصالته وبلال عبد جاوز السحبا.**

٨. **تكريم طالب العلم دون النظر إلى مظهره، فقد عوتب نبينا صلى الله عليه وسلم لانشغاله بعلية القوم عن الأعمى الساعي لطلب مزيد من الهداية.**

٩. **قبول النقد وذكر الأخطاء وتصحيح المسار أثناء المسير أمر لا بد منه، والرجوع عن الخطأ والاجتهاد في تعديله والتوبة منه أيضا فلم ينقص قدر نبينا صلى الله عليه وسلم بهذا العتاب، بل إن هذا الموقف مكسب للرجوع للحق وتربية الاتباع على ذلك فرسولنا صلى الله عليه وسلم هو قدوة للأمة كان شأنه مع ابن أم مكتوم بعد العتاب أفضل حالا منه قبله.**

---

١ تفسير القرآن العظيم / لمحمد بن صالح العثيمين ص ٦٣، اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان، ط الثانية ١٤٢٣هـ. دار الثريا للنشر والتوزيع – الرياض.

٢ الكشاف (٤/ ٣٧٦).

٣ تفسير ابن عثيمين ص ٦٣.

١٠. دعوة كبار القوم ممدوحة لكنها إذا اقترنت بترك دعوة الضعفاء أصبحت الدعوة مذمومة. على العبد أن يجتهد بالاعتناء بأسلوب الدعوة وقوة تأثيره ومن ثم عرضه على كافة شرائح المجتمع من غير تخصيص أحد دون أحد قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : (ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ألا يخص بالإنذار أحدًا، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.)[١]

١١. الحرص على الأفراد الأكثر قابلية للدعوة المحبين للدعوة والملتفين حولها، وعدم التشاغل عنهم بالمعرضين عنها قال السعدي: (وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر. فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: " لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة " وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.)[٢]

١٢. رحمة الله بعباده الضعفاء والفقراء وذوي الحاجة لتتربى الأمة على أن المؤمن الفقير والضعيف وذوي العاهة خير عند الله من الكافر الغني ذو الوجاهة، فها هو الرجل الأعمى يخلد ذكره بوصفه الذي ربما استحقره الناس وتقالوه من أجله ويعلي منزلته ويزكيه { وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فيا لسعادته بتلك التزكية، وكم لها من أثر في نفسه وفي تربية من حوله ومن بعده.

١٣. إن هذا الدين ليس محصورا في الصلاة والصوم والحج بل حتى الأدب مع الآخرين وحسن معاملتهم، والحلم عليهم تعد من العبادات التي يجب أن ينتبه لها. قال صلى الله عليه وسلم: " (إن أحبكم إلي ، وأقربكم مني في الآخرة: أحاسنكم أخلاقا " [١]

---

١ تفسير بن كثير (٨/ ٣١٩).

٢ تفسير السعدي ص ٩١١.

١ التعليقات الحسان رقم الحديث (٥٥٣١).

الخاتمة

أشرف المهمات وأسماها قدرا هي مهمة الأنبياء والرسل، فهي مهمة شاقة للغاية، فالنبي مسؤول عن كل عمل يعمله، عن كل كلمة يتفوه بها، عن كل موقف يحضره ويسكت عنه، بل هو مسؤول عن عبوس وجهه وابتسامة ثغره، لأنه ما أرسل إلا مبشرا ونذيرا، فهو يبين للأمة دستورها بيانا عمليا، ويسطر نظمه وقوانينه وقواعده التربوية والعملية، وأي خطأ أو إهمال سيتلقفه الناس وسيرثونه جيلا بعد جيل معتقدين أنه الصواب، متعبدين لله بفعله أو قوله، لذا كان لا بد من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وتعامله مع الناس، لكي ترسى قواعد الشريعة على ما يريد الله { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) الجاثية. وفي معترك الحياة والاحتكاك بالمدعوين في وقت الرخاء والشدة، والسفر والحضر، في البيت والمسجد، مع الأهل والأصحاب لا بد من خطأ في اجتهاد، أو زلة أو هفوة غير مقصودة فهو صلى الله عليه وسلم بشر، إلا أنه بحكم نبوته يأتيه التوجيه الإلهي بالتصويب وذكر الأفضل. ويشعر العبد وهو يقرأ تلك الأمور أنه لابد من وقوعها لتكون مجالا مناسبا للتوجيه وغرس قيم جديدة في مجتمع يريد الله له أن يكون، مجتمع يستمد قيمه في الحياة من منهج سماوي خلق الخلق وعرف ما يصلح لهم { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)الملك. (وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها، لوجدتها تنحصر في شيء واحد، و هو أنه كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثماً، اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، و أبعدهما عن الغلظة و الجفاء، و عن إثارة الشبه في دين الله. لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحاً، أو جاوزه خطأ ونسياناً ، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، و رأى نفسه مخيراً فتخير. على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمه بشرية و إنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية ، هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ؟ أم هو مقام الربوبية و مقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج

التعليم و التأديب ؟.)[1] له حق السمع والطاعة والنصرة والتأييد عليه الصلاة والسلام ،قال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم[2] شهدت له أمته بالبلاغ واستنطقهم في المحافل قال ﷺ سائلا أصحابه في حجة الوداع وهم يومئذ أربعون ألفا " وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم، اشهد، اللهم، اشهد» ثلاث مرات،"[3]

يَا رَبّ فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيّنَا... فِي جَنّةٍ تَثْنَى عُيُونُ الْحُسّدِ
فِي جَنّةِ الْفِرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَا لَنَا... يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسّوْدُدِ[4]

---

١ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم / لمحمد بن عبد الله دراز، ص ٥٥ ، ط ١٤٢٦هـ.اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع.

٢ صحيح البخاري (٥٠٣/١٣)

٣ صحيح مسلم رقم الحديث (١٤٧).

٤ السيرة النبوية / لابن هشام (٤/ ٦٧٠) والأبيات لحسان بن ثابت رضي الله عنه.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. أحكام القرآن القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الثالثة ١٤٢٤ هـ.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

٣. الاستيعاب في أسماء الأصحاب ليوسف بن عبد الله بن عبد البر على هامش كتاب الإصابة ، ط ١٣٢٨هـ.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. ط ١٤١٥هـ. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.

٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، (٢٥٦٨) ط الأولى ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان.

٦. البرهان في علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط : الأولى ، ١٣٧٦هـ. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٧. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

٨. التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه

٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠. تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

١١. تفسير القرآن العظيم محمد بن صالح العثيمين ،اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان، ط الثانية ١٤٢٣هـ. دار الثريا للنشر والتوزيع – الرياض.

١٢. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من العلماء بإشراف أ.د مصطفى مسلم ط. الأولى ١٤٣١هـ.، جامعة الشارقة.
١٣. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الازهري، محمد عوض مرعب، ط الأولى ٢٠٠١م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط الأولى ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة.
١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط الأولى ١٤٢٠ هـ، مؤسسة الرسالة.
١٦. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة . بيروت.
١٧. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. المشهور بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ. ، دار طوق النجاة.
١٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط ١٤٢٣هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط الرابعة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.
٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المشهور بابن القيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، ط الثانية ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة.
٢١. سنن أبو داود: الإمام أبو داود سليمان السجستاني، تحقيق وتعليق: عزت الدعاس، ط. ١٣٩١ هـ، سوريا.
٢٢. سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط الرابعة ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة – بيروت. أشرف على تحقيق الكتاب: شعيب الأرنؤوط، وحقق هذا الجزء حسين الأسد.
٢٣. السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار المعرفة

٢٤. شرح السنة . للإمام البغوي للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط – محمد زهير الشاويش ، ط الثانية . ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي – دمشق . بيروت.
٢٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبو الفضل عياض اليحصبي – مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى ، ط ١٤٠٩ هـ، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.
٢٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط الرابعة ١٩٩٠م دار العلم للملايين.
٢٧. الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي، ط الرابعة ١٤٠٨هـ، مكتبة ابن تيمية القاهرة.
٢٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني، بعناية محب الدين الخطيب ، ط. مكتبة الفيحاء، دمشق.
٢٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر.
٣٠. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، ط الشرعية العاشرة ١٤٠٢هـ، دار الشروق.
٣١. الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط الأولى١٤١٨هـ.، مكتبة العبيكان – الرياض.
٣٢. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ط ١٤١٢هـ، دار عالم الكتب – الرياض.
٣٣. المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية لخالد بن سليمان المزيني، ط: الأولى، ١٤٢٧ هـ.دار ابن الجوزي، الدمام – المملكة العربية السعودية.
٣٤. معالم التنزيل، : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش.، ط الرابعة ، ١٤١٧ هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

٣٥. المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، ط. الثانية ، ١٤٠٤هـ.، الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل.
٣٦. معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط :الأولى ١٤١١هـ، دار الجيل ، ط :الأولى ١٤١١هـ.
٣٧. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – لبنان.
٣٨. من بلاغة القرآن لأحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي ، ط ٢٠٠٥، نهضه مصر – القاهرة.
٣٩. من معين السيرة صالح أحمد الشامي ، ط الأولى ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي – بيروت.
٤٠. مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبد العظيم الزرقاني، حققه واعتنى به: فؤاد أحمد زمرلي، ط الثانية ١٤١٧هـ، دار الكتاب العربي.
٤١. الموطأ مالك بن أنس. تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي، ط: الاولى ١٤٢٥هـ.مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان
٤٢. مؤلف الأصل محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي.مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني. ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ. ، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية.
٤٣. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم / لمحمد بن عبد الله دراز، ط ١٤٢٦هـ.اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع
٤٤. نظرات في كتاب الله لحسن أحمد عبد الرحمن محمد البنا الساعاتي ، ط. ١٤٢٣ هـ ، دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة	٧٥
الفصل الأول :العتاب	٨٠
المبحث الأول معنى العتاب وأساليبه.	٨٠
المبحث الثاني: عصمة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم واجتهادهم في الأحكام.	٨٢
المبحث الثالث: مكانة النبي صلى الله علي وسلم.	٨٧
الفصل الثاني : آيات عتاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم.	٩٤
المبحث الأول: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لقبوله الفداء في أسرى بدر.	٩٤
المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.	٩٤
المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب وتحليله، ونتيجة العتاب.	٩٥
المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.	١٠٠
المبحث الثاني: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك.	١٠٣
المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.	١٠٣
المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.	١٠٥
المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.	١٠٨
المبحث الثالث: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بإخفائه ما أطلعه الله عليه بأنه سيتزوج بزوجة ابنه الدعي.	١١١

الموضـــــــوع	الصفحة
المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.	١١١
المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.	١١٢
المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.	١١٧
المبحث الرابع: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لتحريمه ما أحل الله له.	١٢٠
المطلب الأول: تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.	١٢٠
المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.	١٢١
المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.	١٢٥
المبحث الخامس: عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لعبوسه في وجه الأعمى.	١٢٦
المطلب الأول :تمهيد عن الحدث الذي نزل من أجله العتاب.	١٢٦
المطلب الثاني: النص القرآني للعتاب مع توضيحه وبيانه.	١٢٧
المطلب الثالث: الآثار التربوية المترتبة على عتاب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم.	١٣٢
الخاتمة.	١٣٥
فهرس : المصادر والمراجع.	١٣٧
فهرس: الموضوعات.	١٤١